تشارلز تشرشل

بين الدروز والموارنة

في ظل الحكم التركي
من ١٨٤٠ الى ١٨٦٠

ترجمة فندي الشعار

دار المروج

بين الدروز والموارنة

تأليف: تشارلز هنري تشرشل

ترجمة: فندي الشعار

دار المروج

١٩٨٤

فهرس

دار المروج للطباعة والنشر والتوزيع

مقدمة

بقلم المترجم: فندي الشعار

لا بد، قبل كل شيء، من التعريف بشخصية الكاتب المؤلف، قبل الانتقال الى قراءة ما كُتب، وكذلك لا بد منْ إلقاء الضوء على الزمان، والظروف، التي أوحت إليه قول ما قاله، فيا كتب.

فمن هو مؤلف كتاب «بين الدروز والموارنة في ظل الحكم التركي من ١٨٤٠ - ١٨٦٠؟».

اسمه تشارلز هنري تشرشل، ارسلته حكومة صاحبة الجلالة، الملكة فكتوريا، ملكة بريطانيا العظمى انذاك، على رأس بعثة بريطانية سياسية، الى هذه البقعة من العالم، شرقي البحر المتوسط، الواقعة على طريق الهند، درة التاج البريطاني في ذلك العصر، لدراسة امرين استراتيجية لبنان وديمغرافيته، ومما قاله تشرشل في لبنان انه المكان الذي يصلح مقرا للدولة العالمية، وهو قول عمره اكثر من ماية وعشرين سنة.

كان وصوله الى الربوع اللبنانية في ١٨٤٢ وكان قد مضى على بداية الاضطرابات في لبنان سنتان، وهو يشير الى ذلك في مقدمة كتابه ومن هنا يبدو ان اهتام اوروبا بشأن ما كان يجري عندنا، بعلم منها ربما، شديدا، فكل شيء عند الدول الاوروبية كان مخططا له ومصمما بدقة.

فقد كانت «المسألة الشرقية» في ذلك العصر، الشغل الشاغل لدول اوروبا المسيحية اذ ان الولايات المتحدة الاميركية لم تكن قد ظهرت الى الوجود. وكل من قرأ عن المسألة الشرقية، لا يجد غرابة فيا يراه من اهتام بما يجري عندنا، يوجد الامبراطورية العثمانية المسلمة. وهو اهتام لم يتوقف عند قدوم بعثة بريطانية الى لبنان، فقد تبعتها اليه فيا بعد بعثات من كل دول اوروبا المسيحية، تساندها الاساطيل في البحر، والجيوش المشاة على البر، وما اشبه الليلة بالبارحة، تحت شعارات براقة، ظاهرها العطف على الانسانية المعذبة، وباطنها ما عرفنا.

قال عمّ جحا لابن اخيه «أتبكي وانا عمّك» فأجابه، «اني ابكي لكونك انت عمي».

لم نكن في لبنان قبل «المسألة الشرقية» مختلفين طائفيا، أما وبعد اعلانها فلا تزال شرورها تلاحقنا حتى لا نجد لحظة يهجع لنا فيها طرف او يسترخي لنا عصب، كانت مصيبتنا في الامس اننا على طريق الهند. واصبحت اليوم اننا الباب الى الشرق الاوسط، وغرفة العمليات فيه.

اجل كان وصول تشرشل الى لبنان في سنة ١٨٤٢ وبعد ان اقام فيه مدة عشر سنوات، غادره وكتب فوراً كتابه المشهود «عشر سنوات في جبل لبنان» ثم في سنة ١٨٦٢. وبعد انتهاء الاضطرابات اصدر كتابه «الدروز والموارنة» الذي نقدمه للقراء الكرام.

كتابه الاول «عشر سنوات في جبل لبنان» صدر في سنة ١٨٥٣ فور انتقاله الى لندن وقبل ان ينسى شيئاً مما رآه، وسمعه، واستنبطه.

كان في هذا الكتاب باحثاً اجتماعياً فعالج من منظور انتروبولوجي وكتب واسهب فلم يترك شاردة ولا واردة الا وذكرها، درس ابرز الظواهر دراسة العالم المدقق، واضعا دراساته في مجلدات ثلاثة نحن في صدد نشرها في وقت قريب انشاء الله.

أما في كتابه الثاني موضوع هذه المقدمة فقد كتب عن احداث عشرين سنة من ١٨٤٠ - ١٨٦٠ كان موقفه منها موقف من يحمل المسألة الشرقية شعار لمهمته فقد صب جام غضبه على الامبراطورية العثمانية المسلمة التي وصفها بالشديدة التعصب، وحمّلها كامل المسؤولية فيما حدث. بينما وصف مبعوثي الدول الاوروبية المسيحية الى لبنان، بالغباء احيانا وبقصر النظر احيانا اخرى، لأنه كان يعتقد انها لم تحقق اهدافها، فضاعت كل جهودها امام الدهاء التركي وذكاء فؤاد باشا.

والكتاب يضعنا في دوامة احداث استمرت عشرين سنة قبل أن يوضع حد لتوقفها ولو مؤقتا، في حساب الزمن. وتشرشل يترك باب المشكلة مفتوحا فيناشد الدول المسيحية، وملوكها واباطرتها وقادة جيوشها لأخذ الثأر ممن، على حد قوله، اذل المسيحية واهانها.

وقد لفت كتاب تشرشل هذا انتباه المفكرين والسياسيين في العالم العربي، وكان ان كلفني المغفور له المرحوم الاستاذ عارف النكدي وهو من رجالات ذلك الزمن بترجمة هذا الكتاب الى العربية وذلك في سنة ١٩٣٩ وقد قمت بالمهمة دون إبطاء. غير أن قيام الحرب العالمية الثانية وما أعقبها من نتائج حالا دون نشره، كي لا نعيد الى الاذهان ذكريات الاحداث المريرة في وقت كان لبنان يستعد فيه ليصبح دولة مستقلة ومثالا للتعايش الفاضل بين الطوائف، بيد ان ما وقع بعد ذلك، من مسببات جرّت ابناءه إلى ما عرفنا طوال سنوات عشر مريرة، دعاني بإلحاح لتقديمه للقراء علهم يجدون فيه علاجا لما يعانونه.

ان المؤلف كتب ما رآه بمنظار «المسألة الشرقية» ولكنه اعطانا صورة يحسن بنا ان ندرسها دراسة علمية بعيدا عن اي تعاطف أو استغلال. وهذا هو الكتاب بين ايدينا وفيه الكثير، وقد قدم له المؤلف بذكاء وما انا إلا ناقل «وما ناقل الكفر بكافر».

بقي ان اشكر كل الذين كانت لهم يد في نشر هذا الكتاب بالعربية، هدانا الله سواء السبيل.

المقدمة

مضت بعض الشهور قبل أن تتفجر أخبار المذابح التي وقعت في سوريا، داخل العالم الحضاري، ومع أن نماذج مما حصل وصلت بالتفصيل إلى الرأي العام في الوقت الراهن عن أحداث تدمي القلوب، فان الإلمام بحقيقة ما تعنيه هذه الأحداث لا يمكن الاحاطة بها إلا بعد معرفة كلية للأسباب المتعدّدة التي تراكمت، وتجمعت طوال العشرين سنة السابقة فأوصلت أخيراً إلى وقوع تلك الكارثة غير الاعتيادية.

ولكوني كنت مقيماً في لبنان طوال تلك الحقبة كلها على وجه التقريب، وكنت قد أقحمت نفسي فيها مستفيداً من توافر الفرص السانحة لاستخلاص ما كان يعتمل، في ذلك الوقت، في نفوس الفريقين الكبيرين اللذين يتألف منهما مجموع السكان، من تصورات. ولما كنت أعتقد جازماً اني كنت في مركز من يستطيع التكلم كمسؤول غير متحيز عن المؤثرات التي دفعتها، والأسباب الرئيسية التي زجتها طوال هذه الفترة المؤلمة من التحاسد والتنافس، إلى ما أوصلها في النهاية إلى دمار مشترك. فإني هنا، أقدم للرأي العام نتيجة ما استخلصته على أمل أن يساعد ذلك كل الذين يولون أحداث سوريا اهتمامهم، على ضبط عواطفهم، وتوجيه أحكامهم.

إن تحليلي المذهبي والسياسي لتصرفات كلا الفريقين: الدروز، والموارنة، مبني على علاقات حميمة وشاملة مع الطرفين، وان تصويري للأخلاق التي يتحلى بها أي منها، مبني على اختباراتي ومطالعاتي الخاصة. ولست أتهم أحداً ولا أدافع عن أحد، بل أترك للقاريء أن يستنتج ويحكم.

كم هو شنيع، وإلى حد يفوق التصور، أن تتآمر حكومة على رعاياها، بعد أن

تكون قد جردتهم من سلاحهم عمداً، انه بسبب هذه الأعمال الوحشية تقف الدولة التركية في قفص الاتهام مُدانة ومُتهمة من دول أوروبا - وان الصفحات التالية تتضمن أقصى ما توصلت إليه التحقيقات بما خصَ ضخامة الفظائع التي تورط بها الأتراك. وهذه الصفحات، تبين أن المسلك السياسي، الذي جعلوه يبرز بربريتهم، في معاملة المسيحيين المواطنين، ليس مجرد نزوة طارئة، أو تصرف غير منضبط، بل هو تعمد محسوب ومدروس، توجيه روح الحقد والضغينة، التي نصبت شباكها عبر السنين العديدة لتحاصر وتسحق بأقدامها ضحاياها التعساء.

إن الوقت آت دون إبطاء، عندما ستصبح نداءات المسيحية والانسانية، فاعلة في اجتذاب الآخرين إلى التعاطي «بالمسألة الشرقية» المثيرة للغضب الشديد، وإني لآمل، متفائلاً، أن يكون هذا العمل الذي قمت به كافياً لدفع الآخرين للأخذ بوجهة النظر هذه، عندما تناقش تصرفات انكلترا الحالية أو المرتقبة إزاء ما ترمي إليه الامبراطورية العثمانية من وراء سياستها هذه.

تشارلز هنري تشرشل

الفصل الاول

إلقاء نظرة على تاريخ الدروز والموارنة- الدين الدرزي- الحكم التركي والمصري في سورية.

الفصل الأول

ظهرت للأوروبيين المقيمين في الامبراطورية العثمانية، الذين كانوا على اتصال دائم بالأتراك ذوي السلطة، والذين كان يتسنى لهم مراقبة وتحليل المنهاج العام لسياستهم الداخلية، المشاهد المروعة التي حدثت مؤخراً في سوريا، بأنها ليست سوى نتائج طبيعية للكراهية المستمرة للشعب المسيحي المواطن؛ تلك التي كانت ولم تزل الظاهرة المستقرة في أخلاق الأتراك.

وانه لا فائدة من التأكيد لهم بأن الباب العالي تائق لمحاربة روح التعديات الدينية والتحكم المزمن الذي مارسه أتباعهم المحمديون، التحكم الذي يقف حاجزاً منيعاً دون القضاء على مظاهر التأخر التي لا يزال غير المحمديين يتأثرون بها، وأنه شديد الرغبة لأن يقوم بالإصلاحات الإدارية المبنية على أساس التساهل الديني الواضح. إنهم يعلمون أن هذه التأكيدات هي محض إيهام وأن هذا التفاؤل بالرغم من أنه ممارس من قبل ساسة دولتهم والسلك الدبلوماسي فيها كان بلا جدوى، بل كان خداعاً، وأن جميع أصحاب النفوذ من العسكريين والهمايونيين وغيرهم مع كل ما كان يرافقهم من اللجان الخاصة والرسائل الامبراطورية والوزارية التي كان الباب العالي ينثرها بافتخار من حينٍ إلى آخر في وجه العالم، لم تكن سوى دلاء تُرمى ليبتلعها الحوت الأوروبي الهائل، المثابر على تتبع الحوادث ساهراً مهدّداً.

إن هذا الاختبار يزعزع بسرعة أعمق الاعتقادات بإمكانية البعث التركي - بكل ما لهذه الكلمة عند الأوروبيين من معنى - وإن الحوادث الأخيرة هي غاية ما كان يُطلب لإقناع أشد الأتراك الوطنيين تفاؤلاً، بأن كل سنة تمر على بقاء الامبراطورية العثمانية على حالتها الحاضرة: من كراهية تكتمها لها نفوس الدول الأوروبية، هي فقط كل ما تجنيه بالاستمرار في أغرب أوضاع للاضطرار السياسي الذي تخدع به الانسانية الساذجة.

إن الفوضى الغريبة هذه الموصولة الطرفين: بحرية معقدة وتعصب فاسد، مدينة ببدايتها المشؤومة، ومولدها المرعب، وحيويتها المميتة، إلى تلك العلاقة السياسية والاجتماعية مع الولايات المسيحية التي عملت دائماً على دفع الباب العالي ليعمل أو يتظاهر بأنه يعمل المحاولة الفاشلة وغير اللائقة للتوفيق ولإلغاء العداء بين المحمديين والمسيحيين. بينما نرى العالم الاسلامي يمقت مثل هذا الاتفاق؛ فقد علّمنا التاريخ مطلقاً؛ ان هاتين الأمتين لا تعيشان معاً إلا كحاكم ومحكوم في وضع الغالب والمغلوب، وهكذا، فبينما نرى السلطان ووزراءه، تفادياً لموقفهم الحرج، يصرحون للعالم الخارجي باعترافهم بالمساواة الدينية والمدنية؛ نراهم من ناحية أخرى لا يجسرون، خوفاً من إثارة الشعور الديني بين المتدينين من أتباعهم المحمديين، أن يتخذوا التدابير التي تظهر حزمهم ومهارتهم. وزيادة على ذلك فقد تفشت بلا ريب، في السنين الأخيرة فكرة صادرة عن الباب العالي، قد تكون بإرادته أو بدونها، في جميع أنحاء الامبراطورية، تشجع كل المؤمنين الحقيقيين على اتباع خطة معينة نحو غير المحمديين؛ خطة ليست سلبيّة فحسب بل عدائية مطلقة.

إنه ليس من الصعب اكتشاف روح العداء التي ينفثها الأتراك، على الأخص في صدد هذا الإيقاظ المقصود، لإثارة العداء المحمدي القديم لأن الكبرياء القوميّة، والكبرياء الدينية، كانت ولا تزال أكثر صفاتهم الخلقية ظهوراً. إنهم يشعرون باقتناع كلي بأن مبدأ التساهل الديني الذي يدفع به الأوروبيون بينهم إذا ترك لينتشر ويقوى في مقاطعاتهم فانه بلا ريب سيضعف السيادة الراهنة التي يعتبرونها ملكاً لهم بفضل الانتصار. وهم يقدرون بأن سماحهم الفعلي لغير المحمديين بالتمتع بكل ما يتمتعون به هم من حقوق وامتيازات، مساواة لهم بأنفسهم سيقودهم تدريجياً بل أكيداً إلى السيادة العليا التي يضمنها الذكاء الخارق والنشاط والجهاد لكل من يتحلى بها. انهم ينظرون بريبة صامتة إلى حالة التحسن التي أوجدها هؤلاء غير المحمديين: هؤلاء الأذلاء الضعفاء، المقصرون، في مقاطعاتهم.

إنهم يرونهم طموحين متفائلين انشائيين واثقين بأنفسهم ثقة هي عبارة عن تجاسر. وهم يعرفون بأن هذا الميل العدائي لا يتقوى من قوتهم التضامنية المستقلة، بل يتغذى من مؤثرات خارجية. ويلاحظون أنهم مُضاعفو التسلح بالعطف الديني الخارجي المهدّد؛ ولهذا فهم يمقتونهم ويخافونهم.

وقد كان من المظنون أن يلجأ الأتراك بكل ما لهم من قوة لوقف كل ما يعتقدونه

تهجماً من الأرفاض المتعصبين بواسطة المساعدة والاغراء، وأنهم سيحاولون اجراء جميع الوسائل المعاكسة، بالدهاء، والمواربة والرياء وبكل أنواع النفاق والمكر ليتحاشوا تنفيذ العهود التي قطعوها على أنفسهم لصالح غير المحمديين بواسطة حلفائهم المسيحيين، ولكنهم لو لجأوا في رغبتهم هذه إلى الدهاء الدبلوماسي بحيلٍ معقولة لكان من المحتمل جداً أن يتمكنوا من إضعاف التدخل الأوروبي والقضاء عليه. كما وأنه كان من السهل تجريد الممثلين السياسيين من: قناصل وسفراء، من كل سلطة وتأثير لو أنهم تحايدوهم بحذاقة وصبر، ولكانت سياسة الأتراك المتلوّنة عاشت إلى ما شاء الله دون أن تصطدم بمعترض، ولعرقلوا الذكاء المسيحي اللامع بذلاقتهم الناعمة المعقدة.

إن الحوادث الفظيعة الأخيرة التي جرت في سوريا مدعومة ومدفوع إليها، بلا ريب، من أصحاب النفوذ الأول في الامبراطورية هي التي أوصلت الأتراك إلى هذه الوضعية الممقوتة. وهي التي ساعدت على إظهار روح الهمجية المنحطة التي لا تزال كامنة في طبيعتهم، وهي التي رفعت الستار عن كرههم غير المعتدل لمسيحيتنا عامة، وان كل هذا التصبر عليهم ليس فقط كثيراً بل مجرماً وان الديانة الغضبى والانسانية والمدنية معاً لتطلب اجراء بعض التدابير بواسطة القوى الأوروبية التي من شأنها أن تري هؤلاء النصف برابرة القوة التي تكبح جماح كبريائهم وتعصبهم الدموي وتجعلهم يشعرون ان المحمدي لا يستطيع، حتى في مكة، أن يذبح أو يعتدي، أو يضغط على مسيحي بدون أن يلقى على الفور عقاباً مماثلاً لاعتدائه وضغطه.

وإن الولايات المسيحية في أوروبا توصلت إلى التمتع بحق الإشراف على مصالح أخوانهم المسيحيين ومراقبتهم في الامبراطورية العثمانية - عملاً بالصلاحية للمحافظة عليهم بحق شرعي يتطلبه الواجب الديني والضمانة السياسيّة. غير أن الوصول إلى هذه الغاية لا يكون بالحصول على وعد من الباب العالي أو تقديم مشورة لضمان سلامة حقيقية دائمة لغير المحمديين. ولا لزوم للتصريح بأن الاكتفاء بهذه النتيجة هو مهزلة وسخرية. لأن الاختبار دل على أن الأتراك مخادعون مراؤون متعصبون.

ثم أن عدم التدخل غير المعقول الأحمق، الذي صرحت به الحكومة الانكليزية للباب العالي، وقد بنته على ثقة في غير محلها، يجب أن يلغى حالاً وإلى الأبد، لأنه ربما كان سبب كل المكائد والجرائم والأهوال التي كانت سوريا في المدة الأخيرة مسرحاً لها.

أجل، إن إلغاء كل هذه المجاملات الكاذبة واجب باعتبار أن كل التأكيدات والتعهدات المقطوعة من جانب الباب العالي لمصلحة غير المحمديين ستبقى، أوراقاً مهملة، ولن تكون حائلاً دون جلب الخير لهم فحسب، بل عاملاً أقوى على جلب التعاسة الكبرى للمجموع الذي وضعت من أجل خيره.

لأنه بينما يغتر، غير المحمديين بالاعتماد عليها ـ التعهدات ـ للوصول إلى رخاء وهناء لن ينالوه ويعملون على نيله، سَتُقَوّي روح الحسد في الحكام المسؤولين وتجر وراءها كثيراً من الويلات والمتاعب، وهؤلاء الأتراك الحكام الذين لن يسألوا عمّا سيقدمون عليه من مخالفات سيجدون لذة في جعلهم غير المحمديين يشعرون بضآلة قيمة العطف الخارجي الذي يعولون عليه كثيراً وفي قرع رؤوسهم بالنكرزات المهينة التي كان «العطف» سبباً لإنزالها بهم.

ثم إذا كانت الدول الأوروبية تشعر أن لها الحق في الاستحصال على وعود من الباب العالي بما يتعلق بغير المحمديين، فيجب عليهم إذا رغبوا في أن يكونوا حازمين ـ وإذا كان لهم أقل تقدير لعزة نفوسهم وكرامتهم ـ وإذا شاءوا في أن يكون عطفهم على غير المحمديين منتجاً، حتى لخير ضئيل ـ وإذا رغبوا في أن لا يكونوا مهزوءاً بهم ـ أن يلحّوا بأن يكون لهم الحق في تعيين ممثلين في كل أنحاء الامبراطورية العثمانية، تكون لهم الصلاحية والحق في الاشراف على تنفيذ الوعود المقطوعة.

أما القول بأن أسباباً كثيرة مختلفة ساعدت على إنزال الحوادث المؤلمة في سوريا، فغير مجادل فيه ولكي يظهر ذلك مفهوماً بجلاء يجب أن ننظر إلى الحالة من جميع نواحيها المختلفة، فربما وجدنا أسباباً مخففة لنفر على الأقل من الفئتين المشتركتين بالنزاع المميت. ولأننا لا نستطيع أن نقول إن هذا الموضوع هو ذو فائدة وقتية، ولأن تأثيرات هذا الاستعراض المؤلم للنزعة البشرية الشريرة الثائرة سينتشر في أكثر من ناحية واحدة ويؤثر تأثيراً دائماً على الحالة السياسية في المستقبل، وحتى في الأرجح على الحالة الاجتماعية للمذاهب المختلفة الموجودة في سوريا؛ فإيراد لمحة، عن تاريخ ماضي كل من المذهبين اللذين كانا الممثلين الرئيسيين في الحوادث الأخيرة، وعن علاقتها بالأتراك؛ ستكون بلا ريب أمراً مفيداً وموصلاً إلى تقدير صحيح لهذا التقرير المهيّج.

* * *

سمع بالمذهب الدرزي لأول مرة في لبنان في أوائل القرن الحادي عشر. فقبلت إحدى القبائل العربية التي كانت قد نزلت هناك من نحو قرنين. هذا الانقلاب الديني بواسطة نشتكين الدرزي ـ مبشر أرسله إلى سوريا حمزه وزير الحاكم الخليفة الفاطمي الذي كان آنذاك حاكم مصر، ليبشر بألوهية هذا التابع لعلي ـ فمذهب الباطنية، أو الإيمان بمعنى القرآن الباطن، الذي انتشر كثيراً وقوي في القرن الثامن، رسّخ الاعتقاد بأن علياً ومن تبعه من الخلفاء مميزون بجوهر الالوهية؛ وحمزه أحد علماء هذا الاعتقاد العظام دفع بهذه العقيدة إلى حدودها القصوى بتعليمه أن الخليفة الموجود، الحاكم، كان شخص الإلّه نفسه. هذا كان الاعتقاد الذي نشره للعالم الشرقي ولاقى أتباعاً في جهات مختلفة؛ مراكش، وبلاد فارس وسوريا، حتى وفي الهند. ونشتكين الدرزي الذي كان مسلماً بقوة حمزه التبشيرية جمع حوله عدداً من الأتباع الذين اعتنقوا هذا الاعتقاد في المقاطعة الواقعة بين سلسلتي لبنان الغربية والشرقية المسماة وادي التيم.

والدرزي هذا اغتر بنجاحه في الدعوة فأظهر نفسه بمظهر الحبر العظيم اعلن أنه رئيس المذهب. وليجذب إليه أتباعاً ومؤيدين دعا لاعتناق أكثر المبادىء انحطاطاً. فغضب حمزه لهذا الخداع والفوضى وجرّده من عمله ناعتاً إياه «بالعجل» الذي كان بعض الكافرين قد نصبوه آلهة لهم. وارتأى أخيراً بأن يعدمه الدروز أنفسهم في وادي التيم. أما الرسول الذي أرسله حمزه ليقوم مقامه فقد كان المقتنى بهاء الدين. وهذا، على ما يقولون، هو الذي وضع للديانة الدرزية الأسس التي هي عليها في الوقت الحاضر. وقد كانت ولم تزل تعاليمه العديدة ورسائله أهم المواضيع التي يتذاكر بها ويدرسها الدروز في خلواتهم.

بيد أن تعاليم الدرزي كانت على درجة من الاغراء في نهجها لا يترك للذين تمادوا في ممارسة هذه الطريقة من طرق التدين، تلك التي تلقي ستاراً على الأتقياء إلى أشد نزعات الطبيعة البشرية شرّاً مجالاً لتركها. وهكذا فالانقسام الديني لم يستأصل بتاتاً ولم يزل الدروز حتى اليوم قسمين، ومع أنهم جميعهم متفقون في الاعتقاد بالحاكم وحمزه فمنهم من هم عاملون في سلكهم بموجب تعاليم بهاء الدين الحازمة، النقية الصالحة؛ ومن هم عاملون بموجب تعاليم الدرزي المتساهلة المظلمة فالأول ـ وانه من الإنصاف أن نقول هم الأكثرية الساحقة. والآخرون هم الأقلية وهؤلاء لا يستنكفون أن يندمجوا بكل أنواع المحرّمات والشرور.

ولكن يظهر أن الدرزي بقي يمارس مهمته مدة من الزمن مكنته من أن يطبع اسمه على هذه الطائفة التي نشأت في بادىء أمرها عن طريقه ولهذا السبب فكل الذين قبلوا بتعاليم حمزه قد دعوا دروزاً بدلاً من أن يدعوا حمزاويين، حسب الواقع والأصح.

وقد أشار إليهم أكثر من كاتب واحد في الحروب الصليبية « بأنهم طائفة متعلقة سرّياً بعبادة العجل يأكلون لحم الخنزير ويمارسون الأعمال المنحطة » وكانوا كلهم في ذلك الحين منضوين تحت سلطة دينية واحدة لا يزالون مشهورين حتى الوقت الحاضر. استأصل في مصر الاعتقاد بألوهية الحاكم الذي ثبّت دعائمه حمزه منذ اعلانه وكانت أولى الأحداث لهذه التجربة غير الموفقة تغيب حمزه عن مركزه وإرسال الدرزي إلى لبنان. وبعد موت الحاكم سنة ١٠٢٥ م توارى حمزه عن الأنظار متوخياً السلامة. ولكيفية اختفائه رأيان: فهناك من قال إنه قتل، ومن قال إنه هرب إلى الصحراء والدروز على كل حال لا يزالون ينتظرون ظهوره في الصين كملك عظيم يقود أتباعه إلى الانتصار والأبهة والمجد. واعتقادهم ثابت بأن طائفتهم تنتشر في داخل الصين في الوقت الحاضر بعدد لا يحصى.

اما الذي جاء بعد الحاكم فقد اخذ اقسى التدابير لأستئصال هذه الهرطقة الممقوتة فاصدر قرار بالقضاء على كل الذين قبلوها في مصر وسوريا، اما الذين كانوا في لبنان فقد تمنعوا بحصونه بأمن وطمأنينة. ولكن اجتماعاتهم حتى في هذا المكان كانت تعقد بكثير من الحذر والتحفظ. كما وانهم استعملوا لغة رمزية للتعارف العادي في الظروف الحرجة. ولم يكن يسمح بالدخول لاجتماعاتهم الخفية التي تعقد صدفة الا لمن كانوا يتأكدون من انه يركن الى حسن اخلاقهم ومقدرتهم على الكتمان. ولكن الاضطرار في النهاية لتجربة طويلة الامد سمح حتى للمؤمنين النفعيين بالانضمام الى صفوف شديدي التمسك وهنا نجد القسمين في هذه الطائفة العقال او العارفين، والجهال او الاميين. اما في الظاهر فالطائفة بالاجمال تمارس الطقوس التي يمارسها متدينو المسلمين في شتى المناسبات.

وبما انه لم يكن بامكان شعب انقص الى درجة قصوى، وكان يعيش بحالة الم وتعب، ان يفكر بانقلاب ديني اخر فقد ثبتوا على اعتقادهم. اما كل ما وصلت اليه الدعوة من النجاح فكان محصورا في المدة التي وجد فيها الدرزي وبهاء الدين، وهذه المدة تقارب ثلاثين سنة. وقد صرح هذا الاخير وهو على فراش الموت ان العالم لا يستحق الرحمة الكبرى التي منحت له على ايدي الحاكم الاله والولي حمزه؛ وامر تلاميذه بالتوقف عن

السعي لزيادة الاتباع مبينا لهم ان هذا العمل لا يكافأون عليه الا بالقسوة والعقاب. فالعمل لنشر الدين توقف منذ ذلك الحين، وباب الخلاص اغلق واصبحت الديانة الدرزية حقا وراثيا، وذخرا مقدساً، وكنزاً ثميناً؛ يجب المحافظة عليه من الاهمال والوهن. واخذ الدروز منذ ذلك الحين يكتسبون قوة ومكانة. بمجرد زيادة عددهم الخاص فقط.

وبما ان قبيلة تنوخ اعتنقت تعاليم حمزه فانا نجد انها كانت تقدم، حتى اواسط القرن الثاني عشر الحكام العظام الذين كانوا ينظمون شؤون الدروز. فكانت قصورهم تتوج اجمل المواقع في جبل لبنان وكان عدد كبير من القرى الدرزية المزدحمة بالسكان والتي تمتد على طول السفوح الجنوبية، تزدان بمظهر عام من التقدم والعمران.

وفي الحروب الصليبية كان الدروز يقدمون لصفوف المسلمين نجدات ذات اهمية. وفي القرن الخامس عشر وصلوا الى قمة مجدهم فاحتلوا بيروت وصيدا. ثم ادخلت بينهم العائلة المعنية المحمدية التي تقلدت بالسيادة الاقطاعية من قبل السلطان نور الدين وخلفت اخيرا العائلة التنوخية في مقامها ومنزلتها العالية. ولم تكن ديانة الحكام عقبة تحول دون الاخلاص بين الدروز لانها، على ما يعتقدون لم تكن لتغير من اعتقادهم او لتختصر في امتيازاتهم. فالمسلمون والمتاولة والمسيحيون كانوا يجدون سلامة تامة وحرية دينية مطلقة بينهم وكانوا « أي الدروز » يدفعون المفروض عليهم للجباة المكلفين. وهكذا فان الباب العالي لم يجرب ان يضعهم تحت سلطة الولايات التركية مباشرة الا في القرن الثامن عشر.

ونرى انه بينما كان الدروز يتقوّون بنجاح مطرد في لبنان بنزعة طيبة، جعلت تلك النواحي، تنسب اليهم فتلقب بالجبل الدرزي، كان القسم الشمالي يزدهر ويبلغ اعلى درجة من التقدم الزراعي على يد الطائفة المارونية المسيحية.

ويبين لنا بنسيفورس في تاريخه الكنسي ان المارونيين كانوا في الاساس طائفة تعتقد بالوحدانية اوجدها الناسك مارون الذي كان يعيش على ضفاف العاصي قرب حماه في القرن السابع. وفي تصريح اثبته وليم الصوري وجاك ده فيتري والاخير كان مطران عكا في القرن الثاني عشر، في تاريخه (هستوريا هيروزليميتانا) Historia Hierosolymitana الذي كُتب اجابة لطلب البابا هنوريوس الثالث يقول: « انهم رجال مسلحون بالعصي والسهام وماهرون في الحرب يسكنون جماعات كبيرة في جبال المقاطعة الفينيقية ليس بعيدا عن مدينة بيبلوس يدعونهم المارونيين نسبة الى رجل هو رئيسهم مارون، هرطوقي، كان.

يؤكد لهم ان في المسيح ارادة واحدة او فضيلة مفردة. والمسيحيون في لبنان خدعوا بالتعلق بخطأ مارون فاستمروا منفصلين عن الكنيسة ما يقرب من خمسمئة سنة. واخيرا تغيرت قلوبهم فاعتنقوا الكثلكة على يدي الاب القدوس عاموري بطريرك انطاكية والتزموا تعاليم الكنيسة الرومانية المقدسة» وهكذا فقد بقي المارونيون الى نهاية القرن الخامس عشر حتى اعترفوا برئاسة البابا في نظامهم الديني ومنفذ هذه الخطوة هو اوجينوس الرابع سنة ١٤٣٨ م.

وقد كان على المارونيين بعد طرد الفرنج من سوريا بواسطة الملك الاشرف سنة ١٣٠٠ ان يحموا استقلالهم من غزوات المماليك حكام مصر. ومع انهم لم يغلبوا على امرهم تماما فإن جماعات منهم كانت تطلب الراحة والسلام في بلاد غريبة. فمنهم من سكنوا في قبرص ومنهم من ذهبوا، تعلقاً بشيعة يوحنا الاورشليمي الى صقلية (سيسلي) وكنديا بينما وجد عدد غير قليل منهم ملجأ اقرب للاحتماء بين الدروز في لبنان. أما المسيحيون اليونانيون (الشرقيون) (الروم) فقد كانوا بين الدروز منذ ابتداء المذهب الدرزي وهم حتى الوقت الحاضر ينظر اليهم نظرة اخوة ويعتبرونهم ضروريين لهم في حياتهم السياسية.

والمارونيون في كل ما حدث لهم من التجارب لم يتوقفوا او ينقطعوا مرة واحدة عن الفاتيكان. وبواسطته تمكنوا ان يتوصلوا الى ايجاد علاقات لهم مع الدول الاوروبية المسيحية. ولكنهم بقوا الى القرن السابع عشر حتى استلفتت تدابيرهم نظر الفرنسيين. فمنحهم كل من لويس الرابع عشر والخامس عشر تحارير حماية، كانت لغتها تدل على ان الصلاحية التي تدفعهم لذلك معطاة لهم من السلطان. ثم ان التجاهل المزعوم، تجاهل المسيو دورين ده اللويس Drouyn de Llouys M. الرسمي لهذا الحق في سنة ١٨٥٤ في رسالة الى آرل أوف كلارندون Earl of clarendon في الاجابة على امر عارض هي من أفظع حوادث التهرب السياسي. أما القناصل الفرنسيون في بيروت فقد مارسوا سلطة مباشرة على الاكليروس الماروني الذين كانوا بدورهم لا يتخوفون من التفاخر بميلهم لفرنسا، ومن

التصريح بأن المارونيين هم فرنسيو الشرق.

حوالي ابتداء القرن الثامن كانت العائلة المعنية قد انقرضت فأختار الدروز لحكم جبل لبنان العائلة المحمدية آل شهاب؛ فرع من بني قريش يتصل نسبها بنسل النبي عن طريق الزيجة والدم. أما النفوذ الواسع للشهابيين في سوريا فكان باقياً من ايام خالد المكنى بسيف الله منذ فتحه مدينة دمشق وقد اقطعهم السلطان نور الدين مقاطعتي حاصبيا وراشيا في الجبل الشرقي في القرن الثاني عشر. وقد مكنتهم تجاربهم العديدة من فهم النفسية الدرزية وحكم هذا الشعب المعتبر، عدداً من السنين كان نفوذهم فيها بينهم غير محدود.

كانت سنة ١٧١٣ معروفة بانها السنة التي حاول فيها الاتراك للمرة الاولى ان يخضعوا الدروز لحكم الباشا (الولاية) المباشر ومع انهم زرعوا بذور الشقاق بين الجبليين ليأخذوا حزبا الى جانبهم فقد كانت تجربتهم مقاومة بعنف وقد علمت المقاومة التي اظهرها الدروز بقيادة الامير حيدر شهاب، في المعركة الدموية الفاصلة التي جرت في عين دارة، الحكام الاتراك انه من المحال ان يجربوا ايجاد سلطة مباشرة في لبنان.

اما النظام الاقطاعي للدروز الذي وضعه الامير حيدر في ذلك الوقت فقد استمر على ما كان عليه الى ان ألغاه فؤاد باشا. والعائلات الخمس التي قسمت بينهم مقاطعات لبنان الجنوبية كانت: آل جنبلاط آل ابو نكد، آل عبد الملك، وآل عماد، وآل تلحوق. وقد كانت دير القمر بلدتهم الرئيسية ومقر الامير وأيضاً احد مراسح المذبحة الاخيرة.

وفي سنة ١٧٥٦ حصلت حادثة سببت انقلابا كليا في العلاقات الودية التي كانت مستمرة بين الدروز والمسيحيين حتى ذلك الوقت، اثرت، لا على وضعية الشهابيين فقط بل على سعادة لبنان نفسه. فقد اعتنق الديانة المسيحية اثنان من الامراء الشهابيين واصبحوا مارونيين. وفي خلال بضعة سنوات تبعهم في هذا الانقلاب عدة امراء. ومع انهم لم يجسروا ان يعلنوا نبأ تغيير ايمانهم فان تفاعيل سياسة الاكليروس الماروني الجشعة، وسلوك الشهابيين العام اصبح مع مرور الايام وفي ساعة مشؤومة غير مشكوك فيه. وهكذا مهدوا الطريق في لبنان للاضطرابات الاجتماعية العامة، التي ظهرت في المدة الاخيرة بظاهرتها الثوروية النكراء.

ومع ان الاتراك لم يتمكنوا من وضع لبنان تحت سلطتهم وحكمهم المباشر فإن ولاة دمشق وعكا لم يضيعوا الفرصة لاستمالة انصار لهم من بين امرائه وشيوخه وهكذا اوجدوا

مجالا للعداء بينهم.

وفي هذا الوقت نصب امير لبنان من قبل حكومة والي عكا غـير المباشرة وكان يدفع لها الخراج السنوي. والجزار المشهور الذي حكم تلك الولاية اكثر من ثلاثين سنة منذ نهاية القرن الثامن عشر الى القرن التاسع عشر – مرن اتباعه على اتباع فنون الدهاء الخبيث لأخضاع الشعب وافساده بتجريده من عزة نفسه وجعله ذليلا يتهالك في الحصول على رضى السلطة.

وهكذا فقد حنى كثير من الارستقراطيين الاقطاعيين رؤوسهم لسلطته رهبة منه او رغبة في الوصول الى غاية حقيرة وهكذا نفذت كل رغباته وامانيه. ليس من ريب في ان الجزار كان ينفذ سياسة الاتراك اللامبدئيّة التي لا تزال تتبع في لبنان الى الوقت الحاضر لتبقيه في حالة سيّئة من الضعف والفوضى وان كل الاساليب التي اتبعوها للوصول الى هذه النهاية مهما كانت منحطة او مثيرة كانت في نظرهم قانونية بحتة.

بقيت جبال لبنان منذ احتلال السلطان سليم لسوريا في سنة ١٥٢١ تمارس استقلالها الحيوي بحرية. وكان الحاكم اللبناني ذو الاهلية والمقدرة قادراً على نشر سلطته عليها جميعاً. فالامير فخر الدين المعني استعمل سلطة الحاكم المطلق من انطاكية الى غزة.فلبنان هو في الواقع النقطة المركزية لجميع القبائل والمواقع المحيطة به. وإذا تمكن اهله من التعاون في ظل المحبة والثقة فالخطر على سيادة الباب العالي يصبح مؤكداً. ففي شماليه وجنوبيه تعيش قبائل الأمراء والنصيرية والمتاولة الذين يشعرون نحو الاتراك بكره عظيم والذين كانوا على استعداد لموالاة اول دولة وطنية تظهر للوجود. مظهرين لذلك علامات القوة والثبات. غـير ان روح الحسد والكراهية التي ظهرت في مناوراتهم اثرت في منع حصول مثل هذه الامنية لأن سياسة الاتراك كانت تعمل لابعادهم واذكاء النار بينهم.

لم يكن في لبنان في الوقت الذي نحن بصدده اثر للتنازع الديني فالدروز والمسيحيون عاشوا معاً في محبة تامة وولاء. وخلال اي نوع من انواع الحوادث التي حصلت بينهم في ايام التنوخيين والمعنيين او الشهابيين (وكانت متعددة) فقد كانت الانقسامات حزبيّة لا دينية وكان في كل حزب فئات من الدروز والمسيحيين وفي زمن الامير بشير الشهابي الذي كان في الباطن مارونياً والذي امتد حكمه من ١٧٨٩ – ١٨٤٠، لم يتعمد اثارة المارونيين على الدروز بل بالعكس كان يشعر ان الدروز هم العنصر الاهم في قوته ومع

انه كان على خلاف ونزاع مع بعض شيوخهم فقد كان بجانبه دائماً قوة منهم يترأسها رجال ذوو وزن ونفوذ، ولم يطلب في حياته مساعدة من اي نوع، من المارونيين فالوضعية العامة لحالة المسيحيين اذن بين الدروز، وفي الواقع، بين القبائل الجبليّة منهم كانت لهذا الوقت مرضيّة الى اقصى ما ينتظر ان يكونوا عليه في ولاية محمدية. والدروز، في الواقع، كانوا يكافئون خولهم المسيحيين اكثر من ابناء طائفتهم لما كان عليه هؤلاء من الذكاء والمقدرة في الامور الزراعية كما انه كان منهم اهل ثقتهم وأخصـائهـم هـؤلاء المسيحيون انفسهم اصبحوا ملاكين وبنوا لهم قرى وشيدوا كنائس واديرة بدون ادنى معارضة وكذلك اشتركوا في كل ضروب الحياة الدرزية فكان منهم عدد كبير من الفرسان كما كان بينهم اغنياء متمولون. وهكذا فقد كانوا في الاجمال على خلاف ما كان عليه ابناء دينهم في المدن الكبيرة والسهول.

كان هؤلاء لسوء حظهم تحت ايدي الاتراك. والولاة الاتراك في دمشق، وحلب، وطرابلس، وعكا، والقدس. والمتسلمون والاغوات في القرى كانوا يستعملون كل كبريائهم الجنسية لينزلوا على رؤوس المسيحيين كل غضبهم ومصائب تعصبهم الاعمى الدائم بلا رادع ولا وازع فالمسيحيون لم يكن لهم سوى حق الحياة، لأن الحياة لم تكن لتؤخذ منهم. انهم كانوا يؤدون الجزية. ولم يكن في هذه الأيام مذابح ولا خلاف ذلك ولكنهم كانوا في الحالات الأخرى مطمورين بالمسكنة والاهانة؛ فلو ظُن ان معهم مال لسرق منهم، واذا اتهموا بأنهم يملكون كنزا لعذبوا حتى يعترفوا به؛ وكان المسيحي ممنوعاً من الركوب حتى على حمار عندما يلتقي في السوق بأحد الاتراك كما كان من واجبه ان يعطيه ناحية الحائط (الرصيف) ويمشي هو في المجرى. ولم يكن يسمح له ان يرفع صوته عندما يخاطب تركيا وكان لباسهم وقلنسوتهم سوداوين؛ ولم يكن مسموحاً للمسيحي ان يحفر اسمه باللغة العربيّة، لأنها كانت اشرف من ان يستعملها فكان يحفره بالعبرانية او اليونانية واذا كان بيت احدهم اعلى من بيت جاره المسلم هدم وصغر. وكذلك كان محظوراً عليهم المسير بالميت من امام باب جامع ما. وتحاشيا للضغط الدائم الذي كانوا معرضين له يومياً فقد كانوا يلتمسون حماية المحمديين اصحاب النفوذ بتقديم الهدايا لهم من مختلف الانواع، وبقضاء حاجاتهم البيتيّة وخدمتهم. وعلى هذه الشروط كان يسمح لهم ان يتنشقوا هواء السماء، ويكونوا من الشاكرين.

في سنة ١٨٣١ دخلت سوريا تحت حكم محمد علي وكان ابنه ابراهيم باشا مكلف بتطبيق سياسته العامة التي اشتهر بها. ولكنه كان يلاقي في كل مكان مقاومة قوية للحيلولة دون تحسين حالة المسيحيين ورفع مستواهم. فقد اجتمعت في كل المدن العائلات المحمدية معاً واتفقت على الغاء كل انظمته وقوانينه غير ان ابراهيم قصر المجال معهم وبعد موقعة نازب وطد قدمه في سوريا ودخلت جيوشه الاوساط الرئيسية المعادية. وهناك قطع عدداً من رؤوس الاغوات والموظفين؛ فانتشر الخوف في كل البلاد وضمنت حرية الرعايا غير المحمدية.

فسمح إذ ذاك للمسيحيين بأن يوظفوا في مجالس الحكم واصبحت دعاويهم مسموعة في محاكم مختلطة من مسلمين ومسيحيين؛ والغي كل ما كان من الفرق في الملبس واصبحت خدماتهم كمعاونين وحكام شرعيين وحتى كموظفين عسكريين في كل مراكز الولايات مقبولة ومكافأة. وهكذا رجعت الى المدن الساحلية الجماعات التي كانت مختبئة بين الدروز، هربا من ظلم الجزار وعبد الله باشا لتمارس اعمالها ففتحت الابواب للمتاجرة مع الاوروبيين حالاً واصبح بور بيروت يزدحم بالمشحونات من لندن ومرسيليا.

الفصل الثاني

الامير بشير قاسم ـ دسائس الموازنة ـ ١٨٤١ عراك في دير القمر ـ السياسة التركية ـ مهاجمة زحلة.

الفصل الثاني

إن شعباً كالسوريين اعتاد الحكم التركي الركيك، المتراخي، غير النظامي ليجد إدارة ابراهيم باشا الحازمة ظلماً مطلقاً. وهكذا فان الروح الثورية لم تكن بطيئة في إظهار نفسها. وسرعان ما ثار الرأي العام؛ إن لم يكن لمعاكسة تنظيمه المطلق فللمعاكسة في طلبه التجنيد الإجباري. فالأتراك مع كونهم قد حققوا منابع الكسب والارتزاق فانهم لم يعملوا على أخذ أولادهم بعد؛ وأمام هذه النقطة على الأخص كانوا شديدي التأثر. غير أن الحركات الثورية الفوضوية هذه كانت بلا فائدة لهم فقد أرغمت كل القبائل الجبلية على تقبيل يد المولى، والدروز كانوا آخر من شعر بجراجة ظروف ثورتهم الفاشلة. إنهم استمروا طويلاً على المنازعة غير المتعادلة بشجاعة وشهامة. ولكن أخيراً بعد أن فرغت يدهم من حصونهم في حوران انسحبوا إلى لبنان حيث قاموا مدة غير قصيرة بحربهم المتقطع مع القوى المصرية. غير أن هؤلاء استطاعوا بعد مدة، بحركة منظمة أن يطوقوهم وينتصروا عليهم. وهكذا أصبحت مهمة ابراهيم باشا بعد الانتصار على ثورة الدروز سهلة. وليس هنالك أدنى شك بأن إدارة حازمة كهذه كانت جعلت سوريا في مدة قليلة، بين يديه، مقاطعة منظمة مزدهرة.

أرسل الدروز في أثناء ثورتهم رسلاً إلى المقاطعات المارونية الصرفة يدعون المارونيين إلى مناصرتهم؛ وقد استحصلوا منهم بدون ضغط أو إكراه على وعود بالمساعدة بتلك الرغبة في التعاون التي على العموم تظهر الميل إلى الاتحاد بين القبائل. أما المسيحيون فلم يبدأوا بالزحف إلا بعد أن استسلم الدروز نهائياً. وإنصافاً لهياجهم نثبت أنهم تظاهروا بجملة اشارات كانت على الأغلب وهمية ولم يكن فيها مخالفة واحدة ذات قيمة. وكان أن عمل موظفو ابراهيم باشا على إرسال الرجال والدواب للعمل في أحد مناجم الفحم التي فتحت مؤخراً في لبنان وهذا كان نوعاً غير معقول من العقوبة لأن الرجال والدواب

كانوا يتقاضون أجوراً معينة تدفع في مواعيدها بدلاً عن أعمالهم. وهكذا فقد أخمدت الثورة ونفي قادتها إلى مصر.

في أواسط صيف سنة ١٨٤٠ وفي خلال هذه الأزمة وصلت أساطيل انكلترا والنمسا وتركيا إلى الشاطىء تدعو السوريين للعودة إلى اخلاصهم للسلطان، وبهذه المناسبة أذكى المندوبون الأتراك وكان بينهم عدد من الانكليز، نار الثورة المارونية فأوجد لهم هذا الغليان مواداً كافية قوية لكتابة التقارير المستفيضة عن الظلم الذي كان المسيحيون في لبنان رازحين تحته، وعن الفرح الذي لاقوا به بترحاب منقذيهم الانكليز. ولما وجد محمد علي نفسه وحيداً، لخيبة آماله بالافرنسيين الذين قضوا على كل آماله رأى أنه من العبث مقاومة الدول الأوروبية المتحدة فانسحب في خلال ستة أشهر وأعيدت سوريا إلى الباب العالي.

إذ ذاك عاد الأتراك عودة النسور الكاسرة إلى فريستهم المشلولة فوضعت جميع الوظائف في المزاد العلني ووضع في مراكز التفتيش الرجال الذين اشتهروا بجبهم للعمال وتعصبهم وهكذا فالعدالة التي جُردت في عهد المصريين من الفوضى لُطّخت ثانية ببقايا الفساد وأصبح المسيحيون مهانين في كل مكان. وكانوا في أماكن عديدة يهاجمون في الأسواق فتمزق قلنسواتهم عن رؤوسهم ويجبرون على الرجوع إلى حالة الانحطاط القديم. وأرسل المأمورون السريون إلى الجبال ليبذروا الشقاق والمنازعات الدينية خوفاً، من أن الرسوم الأميرية الباهظة التي كانت تفرض على الفلاحين في كل بلدة أو مدينة، تخلق منهم اتحاداً قوياً للمقاومة. ولجأ عدد كبير من التجار المسيحيين الذين كانوا يخافون عودة أيام الجزار إلى حماية القناصل الأوروبيين وهكذا استولى على غير المحمديين رعب عام، فانحلت كل المعاملات التجارية ولكن لحسن حظهم كان هنالك بعض الموظفين الانكليز الذين رفعوا تقاريرهم عن الحالة إلى القسطنطينية حيث كان لتدخل اللورد سترت فورد ده ردكليف LORD STRATFORD de REDCLIFF من المفعول ما أوقف استمرار الحركة المعاكسة.

ولأول مرة لفتت الحكومة اللبنانية نظر وانتباه الباب العالي وحلفائه. فالأول أراد أن يضعها تحت إدارة باشا تركي لأن ذلك ادعى لممارسة سلطة مباشرة من قبله ـ وهي غاية لم يغفل عن تحقيقها طوال المدة التي حدثت فيها كل التغييرات والانقلابات. بينما لجأت

الحكومة اللانكليزية إلى خطة معاكسة مراعية ميلها نحو الجبليين فرجحت تعيين أحد الأمراء الشهابيين باعتبار أن مصالح المسيحيين تكون مضمونة أبداً تحت سلطة الحاكم المسيحي. فالأمير بشير الكبير «المسن» الذي مُنع، في أول محاولة من العودة إلى موالاة السلطان ـ لانحرافه من جهة ولاشتراك أولاده فعلاً مع ابراهيم باشا من جهة ثانية ـ من الرجوع سلّم نفسه أخيراً ونفي إلى جزيرة مالطة. ونُصّب في المركز الخالي، الأمير بشير قاسم شهاب أميراً على لبنان.

لكن الدروز نظروا إلى هذا التعيين بشيء من الريبة أظهرت حقيقتها الحوادث التي تلت بكثير من الإنصاف. فالظلم الذي أنزله الأمير بشير الكبير عليهم في نهاية أيام حكمه جعلهم ينظرون إلى الشهابيين بكراهية بحتة فقد أنزل بثلاث من عائلاتهم الرئيسة: آل جنبلاط، وآل عماد، وآل أبو نكد، الخراب المحتم، فهدمت منازلهم وصودرت ممتلكاتهم واقتيد بعض شيوخهم إلى صفوف الجيش المصري وأجبر الآخرون على صرف بقية حياتهم في المنفى.

وهكذا نظر كل الذين رجعوا منهم إلى وضع القوة في يد عضو من العائلة الشهابية بخوف وحذر ولو أنهم برغم كل ذلك عوملوا بعطف ودراية وانتصر عليهم باللباقة والدهاء لكانوا استميلوا بسهولة ورغبة إلى ما يرضي السلطان والدول الأوروبية، ولكن تصرفات حاكمهم الجديد، لسوء الحظ، كانت حائرة، فأشعلت نار البغضاء فيهم وتنبهت عقولهم ليس فقط إلى تذكار ما أصيبوا به في ماضيهم المحزن فحسب بل إلى تخمين ما قد يصابون به في المستقبل أيضاً.

والأمير بشير قاسم وهو على درجة عالية من التكبر والعجرفة جعلته يتوهم أنه يستطيع القيام بما قام به سلفه من تنفيذ خطته الحديدية. فكان يجد اللذة الكبرى في إهانة شيوخهم الذين يحضرون مجلسه وتهديدهم من وقت إلى آخر بتجريدهم من امتيازاتهم الاقطاعية والتصريح لهم بأنه لن يبقى لشيخ درزي أو لابن أي شيخ منهم ظل لسلطة ما، وأنه سيعمل على توزيع مقاطعاتهم على أعضاء عائلته وإذا كنا نرى الدروز في أشد حالات الاندهاش لرؤيتهم ساعد القوة المدنية الحاكمة مرفوعاً ضدهم، فبأي صورة من الألم نراهم لدى شعورهم بأن طائفة أخرى تدفع إلى التقدم بشجاعة لتضعفهم إلى أدنى درجات الاستعباد والتأخير. وفي هذه الأزمة أعطى البطريرك الماروني نفسه الصلاحية

لإصدار قانون يجرد الدروز فيه من أهم مزايا سلطتهم السياسية. فوزع على المسيحيين في لبنان منشوراً دعاة «الإعلام» أمر فيه سكان كل قرية أن يكتبوا عريضة يصرحون فيها بأنهم عينوا هم أنفسهم رجلين يقومان بوظيفة مندوبين عن أهل القرية أو المدينة اللذين ستكون لهما السلطة التي كان يتمتع بها مشايخ الدروز وحدهم. وهي خطة لو أنها نفذت لكانت قضت على كل ما ورثه الدروز من الحقوق الاقطاعية في الجبال وقامت مقامها ولو أن هذه الخطة نجحت لكان على البطريرك وأتباعه أن يكونوا على استعداد لامتشاق السيف.

والكولونيل روز ذكر في مراسلاته العبارة الملطفة في ما يلي: «ان الاكليروس الماروني يرغب في أن ينشر سيادته في الجبال ولو كلفه ذلك إثارة حرب أهلية» حرب أهلية! ـ كلمات مشؤومة بملء الأسف أنها تحققت بحصول معارك دموية وحوادث إحراق وتخريب. ومنذ هذا الوقت منذ هذا التعدي كسبب أساسي، يبدو لنا تاريخ لبنان خلال مدة عشرين سنة تكوناً تدريجياً لمأساة متواصلة مؤلمة.

أجل لم يكن من المنتظر حدوث تعدٍّ أكثر تطرفاً وقحة. وإنصافاً لهذا التعدي الذي لا أسباب موجبة لقهره ولا سوابق له نقول إن الدروز لم يكونوا قد عملوا إلى ذلك التاريخ شيئاً مخلاً لا بكلامهم ولا بسلوكهم ففي دير القمر البلدة التي كانت منذ أجيال ملكاً لآل أبو نكد استقبل الإعلام بعاصفة من الحدا وإطلاق النار والأهازيج المهيجة بينما بقي المشايخ الدروز في شبابيك بيوتهم يراقبون هذه المشاهد التي تعلن أن سلطتهم أصبحت فعلاً ماضياً صامتين كما وأن الأمير بشير مدفوعاً من البطريرك، أمر بإقفال مدارس البروتستانت التي كانت مفتوحة في القرى الدرزية. وذهب نعمان بك جنبلاط بنفسه إلى البطريرك ورجاه أن يلغي تدبيره الخطر، لما كان يقدره من العواقب الوخيمة لمثل هذه الاجراءات. بيد أنه لقي أجوبة قاسية فقد قال له مطران بيروت، لاذنه، متعالياً: «انتظر فلن يمضي وقت طويل حتى يطرد المارونيون الدروز جميعهم من جبل لبنان».

ولا جدال بأن فرنسا قدمت للبطريرك عشرين ألف ليرة «ذهباً» غذاء لحرب تمكنه من تنفيذ غايته إذا وجب الأمر بالقوة وهكذا أخذ الدروز الموقف الدفاعي مستعينين بحيويتهم المعتادة وتضامنهم القوي لضمانة سلامتهم. وان هذا الشعور في الجانبين جعل أمر الانفجار رهن الوقت والظروف.

والبطريرك لم يكتف بما أثاره من البغضاء والعداء بين أبناء طائفته والدروز، فأنزل على رأسه، بتصرفاته غير الحكيمة، استياء وكره الحكام الأتراك بأن أثار مسألة الجزية السنوية التي كانت تدفع للسلطان، منذ عدة أشهر بين قادة المسيحيين في الجبال. أما الدروز فكانوا يؤدونها بنظام ودقة راجين من وراء هذه الطاعة موافقة الباب العالي على عريضة التماس رفعوها إلى القسطنطينية يطلبون فيها أن يكونوا تحت حكم أحد مشايخ الدروز أو أحد الباشاوات الأتراك. بينما كان البطريرك على العكس يستعمل كل نفوذه ليثير روح الثورة في المارونيين بإيهامهم أنهم على جانب عظيم من القوة والأهمية مضللاً إياهم إلى أقصى حدود التضليل وضارباً على وتر آلامهم الحساس إلى درجة تجعلهم في حالة هي أقرب ما يكون إلى الفوضى والهياج.

لقد تمتع البطريرك وأتباعه الاكليروس في أيام الأمير بشير الكبير بنفوذ واسع هو أقصى ما كانت تطمح إليه نفوسهم، فالأمير نزل عند إرادتهم فمنع كل ما يرمي إلى التساهل الديني وسحقت كل جهود البروتستانت تماماً وكان كل من يعرف عنه أنه يخالط الانكليز أو الاميركان يوضع حالاً تحت عقوبة الحرمان من الفكرة التي زرعت في عقول المسيحيين كانت أن الانكليز والاميركان كفرة ملحدون خارجون عن الكثلكة المقدسة والكنيسة وقد نُشر قانون في سنة ١٨٤٠ عند وصول الأسطول البريطاني إلى الساحل في كل أنحاء الجبل جاء فيه إن كل من يحاول من أبناء الجبال النزول للتفرج على الأسطول الانكليزي تقلع عيناه، وهكذا فقد استعمل كل ما يمكن أن ينتجه العقل الاكليركي لمنع انتشار الآراء الانكليزية سياسياً ودينياً بين جماعات المسيحيين الوطنيين. غير أن بسقوط الأمير بشير قطع العنان الذي كان الاكليروس الماروني يقود به السلطة الزمنية ومع أن خلفه أظهر كل الرغبة التي يستطيعها لأن يجعل نفسه أداة لهم فمجرد وجود الانكليز على أرض سوريا أبطل السحر. والدروز رغبة منهم في أن يربحوا ضرباً معتبراً. ولاعتقادهم، أو لرغبتهم في الاعتقاد، بأن لحمزة أتباع في انكلترا فقد كانوا يرحبون بالانكليز أينما وجدوهم بكثير من البشاشة فيظهرون لهم عطف الأهل والانسباء ويطلبون منهم بإلحاح أن يفتحوا لهم مدارس. إنهم كانوا يريدون أن يتعلموا وأن يتنوروا وأن يكونوا متمدنين متحضرين.

وأمام العداء المؤلم الممقوت وغليان النفوس الغضبى الهائجة التي كان البطريرك

الماروني مع الاكليروس يدفع بها ضد الدروز. وأمام محاولاتهم العديدة في المخاطرة بضم المقاطعات المختلطة حيث كان الزعماء الدروز الاقطاعيون يحكمون على المجموع الدرزي والمسيحي ومع ما دعى إليه الإعلام المشهور من تعيين العمال المسيحيين في كل قرية درزية مسيحية من قبل البطريرك فانه كان يعمل في هذه الأوساط على وضع المسيحيين تحت سلطته المباشرة المطلقة لجعلهم خاضعين لكل أحكامه ورغباته. إنه بزرع هذه التدابير في جميع مراكز المقاطعات الدرزية كان يثق بأنه سيحتفظ بدكتاتوريته الطويلة، التي قدرها، في ظل هذه الظروف المتقلبة. ثم يسحب يده بحذاقة ويغلق الباب على كل محاولة أو نظام بإمكانه تغيير شيء من هذا التدبير الكنسي الذي جعل كل مسيحي من أتباعه خادماً له وعبداً. وأنه من المهم أن نلاحظ هذه الظاهرة الهامة في الأزمة المتعاظمة لأننا هنا يجب أن نضع الأصبع على نبع المصائب المتراكمة التي تجمعت على لبنان من روافد عديدة ومراكز مختلفة فأظلمته وأتعسته.

وأخيراً وجدت أطماع الاكليروس لها مخرجاً ففي ١٤ أيلول سنة ١٨٤١ حدث بين الدروز ومسيحيي دير القمر معركة أسفرت عن قتل خمسة من المسيحيين وستة عشر درزياً وجرح ثمانية من المسيحيين وستة عشر من الدروز. والسبب أن بعض المسيحيين كانوا يتصيدون الحجل في الوادي العميق الذي يقع بين دير القمر وبعقلين والذي كان خاصاً بالزعيم الاقطاعي ناصيف بك أبو نكد فاجتمع نواطير الدروز وطردوهم مستعملين العصي فقط. فاستنجد هؤلاء بمسيحيي دير القمر - بدون أن يشعروا بعظم خطأهم هذا - فهبّت للحال نجدة كبيرة من أبناء دينهم مدججين بالسلاح إلى أذقانهم وأصلوا الدروز ناراً حامية.

ولما وجد هؤلاء أنفسهم مهاجين بهذه الصورة الوحشية المهيجة اعتدوا بسلاحهم وأصبحت المعركة عامة وعندما رأى مسيحيو دير القمر من أماكنهم المرتفعة أن المعركة بدأت وأن جماهير الدروز تتراكض من كل مكان وقعوا في يأسٍ غريب فخرجت النساء إلى الأسواق يلطمن صدورهن وينثرن شعورهن ولجأ الرجال المسنون إلى السطوح ليحموا المدينة في حالة الهجوم وهكذا فقد أصبحت حالة الاضطراب عامة. واستولى على جميع العقول الخوف من هجوم درزي عام ولكن من حسن حظ السكان المسيحيين أن كان الكولونيل روز قنصل صاحبة الجلالة «الملكة فكتوريا» في البلدة «دير القمر» في ذلك

الوقت فركب آمراً أحد مشايخ الدروز باتباعه حتى وصل إلى مكان المعركة، على مسافة ميلين، في الوقت المناسب فرمى نفسه بشجاعة ولباقة بين المتخاصمين وكان تدخله مفيداً إذ أصغى الفريقان لنصائحه وتوسلاته وأخمدت في هذا الوقت على الأقل نيران الحرب الأهلية لتكمن تحت الرماد إلى زمن آخر تظهر فيه إلى الوجود.

تنبه الدروز إلى أن هذا العداء غير المنتظر الذي نهجه المسيحيون يجعلهم يهبون لملاقاة الحالة الحرجة بالاستعداد العام، إنهم هوجموا مهاجمات جزئية في نواحٍ أخرى من لبنان ففي جزين قتل المسيحيون ثلاثة من الدروز كان أرسلهم الجنبلاطيون لجمع المحاصيل كما وأن شعورهم العدائي كان قد أثير بخسارة أربعة من مشايخ آل عماد وبعض النساء في بعقلين وجميعهم كانوا يتدخلون لمصالحة المتقاتلين.

وزاد في الطين بلّة تصريح البطريرك الماروني انه إذا استمر الدروز على عنادهم في المطالبة بحاكم درزي فسيهاجمهم على رأس المارونيين ويمحيهم.

وحاول الأمير بشير من ناحيته أن يجرد مشايخ الدروز من امتيازاتهم الاقطاعية وتمادى أيضاً بأن جهّز جيشاً من بين المسيحيين الشركاء مهاجماً الحقوق الوراثية لآل أبي نكد؛ وورد تقرير في ذلك الوقت يفيد أن الأمير بشير الكبير سيعاد إلى الحكم وهذا أمر كان يعرف الدروز خطره لأنه تدبير يمهد الطريق لإعادتهم إلى حالتهم السابقة من الضعف والتفرقة.

وتحت كل هذه التأثيرات فقد أصبحت القضية للدروز قضية موت أو حياة وكان عليهم أن يضربوا الضربة القاضية لأن الاستعدادات لإذلالهم كانت في حالة نضوج تام وهم كانوا في ذلك الوقت قد تعاهدوا مع الأتراك وبدأوا يتبعون بلا ريب تعاليمهم السرية.

وفي صباح اليوم الثالث عشر من شهر تشرين الأول كانت الجنود الاقطاعية لآل جنبلاط، وآل أبو نكد، وآل عماد، ببيارقها الخفاقة ورجيج طبولها الداوي تحتل كل المنافذ المؤدية إلى دير القمر وتتوج جميع القمم المحيطة بها بشكل ساحر مدهش فلم يسبق أن رؤي حشد سريع تام كهذا أو تنظيم اسمى من هذا التنظيم السري الحيوي الفعال الذي يشتهر به الدروز في زحفهم الحربي. دهش المسيحيون لهذا الهجوم المفاجىء فحملوا أسلحتهم وراحوا يتراكضون وهم في أقصى درجات الرعب أما الدروز فقد استمروا

متدفقين على المدينة المطلوبة فكانوا لبضعة ساعات يصطدمون بمقاومة قوية غير منظمة في الضواحي التي استطاعوا أن يأخذوها ويحرقوها وأخيراً سيق المسيحيون إلى المركز الرئيسي حيث أخذت عائلاتهم تتجمع عند غروب الشمس؛ أما الأمير فقد بقي طول النهار محبوساً في غرفة صغيرة حفظاً لسلامته. ولم يخيم الظلام حتى أصبحت القرى الرئيسية المجاورة شعلة من نار.

وخلال ليلة الحصار كلها شاهدت البلدة دير القمر أعظم المناظر المرعبة إذ كانت السماء مضاءة بكمية عظيمة من اللهب بينما كانت تسمع بين حينٍ وآخر صرخات الخوف من المسيحيين ودقات أجراس المارونيين الصاخبة تتخللها «زغاريد» الدروز المنتصرة. بقي الصدام بلا توقف على الاطلاق طيلة يومي ١٤ و ١٥ تشرين الأول بينما هاجم آل أبو نكد القرى المجاورة وبنجاح وذبحوا جماعات كبيرة من سكانها المسيحيين وفي ١٦ تشرين الأول وصل من بيروت إلى دير القمر الكولونيل روز يصحبه أيوب باشا في الوقت المناسب لينقذ دير القمر من خراب محتم ورجالها من ذبح لا رحمة فيه ولا هوادة فالدروز قد كانوا لذلك الحين ذبحوا عشرين أسيراً من المسيحيين بحد السيف.

والدروز عندما يثأرون، يثأرون بلا شفقة فيغمسون أيديهم في الدم بفرحٍ وحشي يفوق حد التصديق، ولكنهم، على الإجمال لا يمسون النساء مطلقاً. عمت صرخة الحرب في هذا الوقت جميع لبنان والطائفتان في جميع مقاطعاتها اعتدتا بالسلاح حتى أن البطريرك الماروني الذي كان مريضاً في ذلك الحين طلب أن يحملوه على فراشه أمام القوى المسيحية «لينشر علم الصليب ويموت على رأس القوة».

كما وأن مطران الروم الكاثوليك في زحلة أرسل نداءً يدعو فيه كل المسيحيين الحقيقيين ليتقدموا بدون خوف قائلاً لهم: «ارهقوا سلاح الجهاد ولا تعودوا من ظفرٍ ما قبل أن تخربوا كل شيء لكن لا تمسوا النساء أما ما تبقى من قتل ونهب وحرق فتأكدوا من أنكم تقدمون عليه جميعاً. وفي خلال ذلك اصلوا صلواتكم واعترافاتكم لأن حربكم هذه مقدسة». بيد أنه أينما وقعت المعارك بين الدروز والمسيحيين فقد كان الظفر حليف الأول.

كانت الغاية القصوى لهؤلاء تخليص دير القمر غير أن جهودهم كلها ذهبت عبثاً ولم تثمر فالمسيحيون الروم انضموا مع الدروز في مهاجمة المارونيين وكان الأمراء الشهابيون

على رأس القوى المسيحية آملين أنهم إذا انتصروا يستحصلون على إعادة الأمير بشير الكبير وتجديد زمن قوتهم العائلية بيد أن الدروز تمكنوا خلال عشرة أيام من إخضاع كل المسيحيين المقيمين بينهم بعد أن أحرقوا ونهبوا قراهم وأديرتهم.

والآن تهيأوا ليحملوا الحرب إلى المقاطعات المارونية الصرفة شمالي نهر الكلب ولكن، وهذا من حسن حظ المارونيين أن نعمان بك جنبلاط الذي كان يتمتع بنفوذ واسع بين الدروز تدخل بتوسطٍ عظيم. فقد عارض حصول مثل هذه الحركة معارضة كلية حتى أنه صرّح بأن كل قوة درزية تقطع النهر يهاجمها حتماً وهكذا بقي محاطاً بأمناء سرّه ليل نهار فكتب عشرة آلاف رسالة إلى الدروز والمسيحيين ذوي النفوذ يدعوهم إلى وقف هذه المذبحة الأخوية. وهكذا أوقف هذا الانتصار الدرزي بواسطة أحد قادتهم. أما البطريرك الماروني الذي صُدم بالنجاح المطلق لهؤلاء الذين كان ينوي سحقهم فانه حبس نفسه في بادىء الأمر في غرفة في ديره وأخيراً التمس اللجوء إلى احدى الدوارع الانكليزية.

أما في دير القمر فقد سلّم المسيحيون بعد ثلاثة أسابيع من حصارٍ ضيّق. ورموا سلاحهم في ٥ تشرين الأول، وجد الأمير بشير نفسه سجيناً لا معين له فقرر مغادرة البلدة قابلاً بشروط فرضها عليه الدروز بمصادقة الباشا في بيروت وكان لانهزامه منظر احتقار كلي، فعند تركه مقره يرافقه الأتباع على خيولهم أخذ منه ختمه وسيفه بشكل عنيف جرحت أثناءه يده كما وأنه جرّد من قلنسوته والقسم الأكبر من ملابسه وأطلق عليه أحد الدروز طلقاً نارياً فأخطأه. ولما اقترب من بيروت شاهد مسكنه الخاص ومنازل الأمراء الشهابيين ومساكن بعبدا والحدث ملتهبة وأتباعه المسيحيين يهربون باضطراب عظيم أمام معسكر الجيوش التركية النظامية التي أرسلت لإعادة النظام ولم تنفك طيلة مدة الحوادث ساكنة تراقب بفرح جميع أنواع الاضطرابات. كما كان فرسانها الأتراك غير النظاميين يتصدون للفارين المساكين فيجرحونهم ويسلبونهم حتى أنهم كانوا يجردون النساء اللواتي تركهن الدروز من ملابسهن. وقد كان سلوك الأتراك شائناً إلى درجة جعلت المارونيين يُصرّحون: «بأنهم يفضلون أن يفتك بهم الدروز من أن يحميهم الأتراك».

والآن ظهر جلياً أن المحاولة الأولى التي جربها البطريرك وأنصاره ليوجدوا لهم نفوذاً في لبنان باضعاف الدروز، إن لم يكن بالقضاء عليهم كانت فاشلة. وهكذا فان وشاياتهم

وعربداتهم الفارغة ظهرت جلياً وخطتهم الهوجاء غير الحكيمة للتوسع والتعاظم تلاشت تماماً وإناء غضبهم الذين أعدوه للدروز انصبّ بهولٍ على رؤوسهم وكل مرارة قلوبهم تلاشت مع زفراتهم دون ثمرة ولم يبق لهم من كل سمومهم إلا الابرة. أما للأتراك فقد كان كل هذا الغليان بأقبح النزعات البشرية المستخدمة في نزاع مدني عطراً لرائحة تضحية ذكية إنهم كانوا يمدّدون أمد النزاع المحقون لغاية في نفوسهم وكانوا يرون أنهم خلال هذه المجازر الدموية فقط يتمكنون من توطيد حكمهم المباشر على لبنان انهم رأوا في مسيحيي لبنان جذوة الخيانة والاستقواء الدائم بالقوة الأجنبية التي تمكنهم تدريجياً من تقديم اقتراحات جديدة للحصول على حقوق جديدة وفي النهاية إلى التمتع ربما، باستقلال مغاير وخطر على مصالحهم السياسية.

وفضلاً عن المقت الداخلي للمسيحية فالأتراك كانوا يلاحظون أن العنصر المسيحي هو من دون العناصر الموجودة تحت سلطانهم، الوحيد الذي تظهر منه حيوية خطره. ولهذا السبب فانهم يتربصون بعيني الفهد كل ناحية من نواحي امبراطوريتهم حيث تكون الحالة مهدّدة قلقة فيثيرون الاضطرابات فيها في الحالات الموافقة فوق العادة ولولا أن العناصر المسيحية في لبنان قويت واستقرت وتقدمت ـ الحالة التي يمكن أن يصل إليها فقط بمساعدة وحماية الولايات المسيحية ـ لكان مركز الأتراك وهم الدولة الحاكمة ذات الصلاحية يتأثر مادياً في سوريا نفسها ولكانت القبائل المجاورة تستيقظ تدريجياً من خمول الأجيال المزمنة.

وهكذا فقد كانت الغاية الوحيدة أو بالأحرى الأهم التي وضعها الأتراك نصب أعينهم في السنوات الأخيرة في لبنان، تحت التعرض إلى أي خطر وبأي واسطة، مهما كانت فظيعة، أن يخفضوا شأن كل عنصر يظهر أنه مصحوب بمثل هذه المظاهر الخطرة. ويقطعوا، كما في الواقع، عند الحاجة «ومع الأسف أن يكون هذا التعبير محزناً في معناه» السرطان الذي كما يرونه هم يهددهم بالامتداد إلى صميم أعضائهم الحسية. هذا هو مفتاح سياستهم الاجمالية ومع اعتباره أساساً فأن كل أعمالهم التي تلت وكانت مغايرة ومضادة للشعور الاخلاقي كان جزاءً متمماً شفافاً. إن الحاكم المسيحي في لبنان عزل بالقوة وكان هذا للأتراك انتصاراً طبيعياً لأنهم تنفيذاً لغاياتهم بالحصول على سلطة الحكم المباشر في لبنان أثاروا الدروز ضد المسيحيين وشجعوا المسيحيين في رغبتهم للتحرر من هؤلاء

الأخر. ومما يدل على معرفتهم التامة بكل حركات الدروز تصريح السرعسكر.

«انه عرف أن الدروز عازمين على مهاجمة دير القمر قبل الحادثة بأربعة عشر يوماً».

وبالرغم من نصائح وملاحظات القناصل الأوروبيين فان أصحاب النفوذ الأتراك لم يعملوا أقل تدبير لوقف المنازعات العدائية أو لمعاقبة أولئك الذين كانوا مسببين. أجل لقد أبديت التأسفات بحرارة، وقطعت الوعود وأمرت الفرق بالتقدم إلى مراكز معينة ولكنهم لن يقوموا بأي عمل يمنع فئة من مهاجمة فئة أخرى فهنالك قرىً كثيرة أحرقت بأسرها أمام أعينهم بل وأكثر من ذلك أن السرعسكر إظهاراً لحياده العام المجرم أرسل خمسة جمال محمّلة ذخيرة إلى مراكز المارونيين الرئيسية وهكذا أمدوهم بأعداد تساعدهم على استمرار الحرب. وفي اليوم التالي، إخفاءً لهذا التظاهر أرسل لهم أمراً بوجوب عقد صلح مع أخصامهم ولو كان بتحمل أقسى العقوبات والدروز أيضاً استلموا في الوقت نفسه كميات من الذخائر من نفس المركز.

وإذا كان هذا هو تصرف الأتراك في ولاية بيروت فقد كان في دمشق تصرفهم أكثر قبحاً واستفزازاً. فان نجيب باشا وهو أقبح نموذج للأتراك السفاحين المنافقين المتعصبين بدأ منذ وصوله بإثارة وإحياء التعصب المحمدي.

وفي علاقاته مع لبنان الشرقي، الذي كان ضمن حدود صلاحيته، لم يرَ من اللزوم أن يشتغل من وراء القناع. ومع أن المسيحيين في تلك المقاطعة كلهم روم ولا علاقة لهم البتة مع المارونيين في لبنان ولم يظهروا مرة واحدة قابلية للاخلال بالأمن فقد جعلهم يشعرون بعبء اضطهاد مدروس. انه ألقى القبض على الأمير سعد الدين شهاب الحاكم المحمدي في جربيتا عاصمتهم وحبسه لجريمته الوحيدة وهي اعتداله وانسانيته مستبدلاً إياه بالزعيم الدرزي الشهير شبلي العريان الذي كان طيلة ذلك الوقت على رأس القوة التي قاومت ابراهيم باشا. وأول أعماله الرسمية حسب التعليمات السرية كانت تجريد المسيحيين من كل قوة، رداً على التعهدات التي قطعها لهم الباب العالي بواسطة الحكومة الانكليزية: بإلقاء القبض على رجالهم أصحاب النفوذ وتوزيع كميات كبيرة من البارود على الدروز.

وبعد أخذ بعض التدابير الأولية تقدم شبلي العريان على رأس خمسمائة فارس من الأتراك وبضعة آلاف من الدروز يتقدمهم مشايخهم لمهاجمة بلدة زحلة الواقعة على حضيض أحد سفوح لبنان الشرقية المطلة على وادي البقاع المخصب «سوريا المنهدمة»

وفي طريقه إليها أحرق ودمّر عدداً من القرى المسيحية المسالمة وقد ميّز سعيد بك جنبلاط نفسه في غزوته بمهاجمة قرية صغبين وقتله مائتين وعشرة من الرجال والنساء.

وقد تقدم ثانية القناصل الأوروبيون جملة عند سماعهم بهذه الحوادث يحاولون باعتراضاتهم الملحة تغيير حالة الاضطراب المخيفة التي كانت بلا ريب تهدّد كل طوائف المسيحيين في لبنان والشعوب المسيحية في سوريا بدون تفرقة وكانوا مواجهين كالعادة بتجاهل واستغراب مصطنعين ولكن أخيراً ظهر عزم الأتراك على كف كل مظهر من مظاهر القوة في صفوف المسيحيين وذلك عندما شعروا أن موقفهم أمام هذه «الاعتراضات المضحكة» ـ مضحكة بل أكثر حقارة ومذلة من ذلك ـ التي تقدم بها ممثلو الدول الأوروبية الخمس إذ قد يكون هؤلاء مكلفين ومفوضين من ملوكهم بالوقوف بين الأتراك وفريستهم العزلاء. فكان يجب أن يضعوا حداً لهذه الحالة ويجبرونهم عندئذٍ على الوقوف مع صفوف المتفرجين الذين لا حول لهم ولا طول أمام غضبة قوية دائمة ضد إيمانهم العام.

وكلهم في الواقع، أشعروا وصرّح لهم أنهم كانوا يقاومون بلا جدوى خطة مرسومة ومقررة صادرة عن القسطنطينية وحدها وأن مندوبي السلطان في سوريا لم يكونوا يتصرفون هكذا لو لم يكونوا مفوضين بذلك بتعليمات سرية من الباب العالي وهذا استنتاج مؤيد بكتاب مصادر كان نجيب باشا قد بعث به إلى السر عسكر. ينبّه فيه هذا الاخير: «لا إلى الاضطراب نفسه بل إلى أن كل ما حدث في لبنان وما حدث ويحدث هناك كان بملء رغبة الباب العالي».

أما مهاجمة الدروز لزحلة فقد كانت لحسن الحظ فاشلة ولولا ذلك لكان المسيحيون هناك جربوا بلا ريب قسوة الدروز ومخادعة الأتراك فرشيد باشا الذي أمر بالتقدم لمنع المعركة أخر تقدمه عن قصد ليعطي الدروز فرصة كافية بينما لجأ تابعه الذي تعهد للمسيحيين بالحماية التامة لقاء تسليم أسلحتهم، إلى الذهاب إلى مخيم الدروز لمرافقتهم في اليوم التالي في هجومهم الفاشل. وهذه الحوادث السريعة لانتصارات الدروز المشجعة والمعاضدة من الأتراك سببت انفجاراً شاملاً للتعصب المحمدي ضد المسيحيين في كل سوريا ففي المدن الكبيرة كانوا ينتظرون ثورة عامة والمسيحيون الوطنيون كانوا يهانون ويضربون ويطرحون إلى الأرض في الأسواق وهكذا رست الدوارع الانكليزية على

شواطىء المدن لتطمئن الرعايا الخائفين وأن عائلات عديدة هربت من الداخل إلى الشواطىء خائفة مذعورة. وفي عدد كبير من القرى المجاورة لدمشق أحرق الأتراك الكنائس وهدموها وهدّدوا المسيحيين بقتل الرجال وبيع النساء والأولاد عبيداً وفي دمشق نفسها شجع المحمديون بواسطة هذه الحوادث المتكرّرة للمناداة مطالبين بهدم الكنائس التي بنيت بدون موافقة السلطان أثناء الاحتلال المصري كما جاهروا بأن الوقت لتقييد غير المحمديين بجميع بنود اتفاقية عمر بن الخطاب الشهيرة حان ورفعت المعاريض للمطالبة بتغيير كل الموظفين المصريين وأخيراً وقد حرضوا سراً من نجيب باشا بدأوا يتحدثون عموماً بمذبحة عامة للمسيحيين وفي وسط هذه المخاوف التي استولت على المسيحيين عامة ثبت لهم أن الباشا كان يتهيأ لمرافقة الحجاج الذاهبين إلى مكة حتى حوران. ورأى مستر وود قنصل صاحبة الجلالة حالاً أن هذا تدبير بارع منه للتخلص من المسؤولية في كل ما يمكن أن يحدث من الاضطراب في غيابه. فواجه في أول الأمر العلماء واستطاع بنفوذه الشخصي فقط أن يجعلهم يوافقون على استعمال سلطتهم ليمنعوا هذا الكره الديني المتزايد ساعة بعد ساعة ثم ذهب إلى الباشا فتقابل وإياه ونبهه إلى الخطر العظيم الذي يمكن أن تجره هول الحوادث على الامبراطورية نفسها إذا بقي مثابراً على تصرفاته الحاضرة وتوسل إليه في وجوب البقاء في مركزه. وهكذا غلب التعصب المزمن على أمره فأصدر الباشا، بعد استيقاظه من هذه الغفلة الخلقية، أوامره لضمان الهدوء العام وهكذا همدت الموجة الدموية.

الفصل الثالث

١٨٤٢ عمر باشا حاكم على لبنان ـ انتفاضة الدروز ـ شبلي العريان ـ اول كانون الثاني ـ يناير سنة ١٨٤٢ ـ انكسار الدروز ـ الدروز والقائمقامين المسيحيين ـ كانون الثاني يناير ١٨٤٥ سعيد بك جنبلاط ـ هجوم الموارنة على الدروز ـ اندحار المسيحيين.

الفصل الثالث

اخمدت من لبنان كله نيران الحرب الأهلية تدريجاً وهكذا انتهى النزاع الذي نتج في باديء أمره عن جشع وتعصب البطريرك المتطرف واشترك فيه الذروز غاضبين لقوميتهم ومدفوع بها الى الغليان بواسطة الاتراك الذي يستولي عليهم الوجل والارتعاش لاقل خفوق ينبض به القلب المسيحي.

وان النتائج المباشرة اسفرت عن خسارة ثلاثة آلاف من الارواح وتخريب ممتلكات تعدل قيمتها بنصف مليون من الليرات تقريباً. بل فقد كانت اشد ايلاماً من ذلك بتركها في صدور الفئتين المتعاديتين بذور العداء التي يمكن ان تثار في المستقبل لاستئناف نشاطها المميت، تنفيذاً لسياسة اسيادهم المشتركين. والمسيحيون التمسوا بدون جدوى تعويضاً معادلاً لخسائرهم. فالحكام الاتراك لم يهتموا للضغط على الدروز لاعادة المنهوبات التي كان لهم فيها النصيب الاوفر. ومع انهم كانوا يبحثون باهتمام مع القناصل الاوروبيين بضرورة اعادة المنهوبات وحتى بالمعاقبة فانهم كانوا ادهى من ان يتخذوا التدابير الحازمة ضد طائفة اسدت اليهم خدمات جليلة.

على الاثر جرّد الامير بشير قاسم من وظيفته بتحقير وارسل مخفوراً إلى القسطنطينية وفي الخامس عشر من كانون الثاني سنة ١٨٤٢ عين عمر باشا حاكماً على لبنان. وحوالي المدة نفسها وصل مصطفى الى بيروت كمندوب فوق العادة من قبل الباب العالي للتحقيق في اسباب الفوضى الاخيرة واتخاذ التدابير لاعادة النظام. وإن اختياراً اسوأ من هذا لم يكن بالامكان عمله. فقد ظهر حالاً ان غايته الوحيدة كانت اذكاء نار الفتن المحزنة التي كانت موجودة واثارة شعور الطوائف المحمدية بشكل يزيد، عشرة اضعاف في قوة الكره العادي للمسيحيين.

لا ريب أنه كان يعمل بموجب تعلماته السرية. فامام الباب العالي تنفيذ نقطة هامة هي

من مصالحه الخاصة. وقد انتخبه، اياه، اداة مناسبة وتوصلاً لتنفيذ تلك النقطة كان من الضروري ان يتظاهر المسيحيون انفسهم بالرغبة لان يتولى الحكم عليهم تركي. هذه كانت مهمة مصطفى باشا وبناء على ذلك، أخبر المسيحيون بان لهم الحرية التامة في اظهار رغبتهم عن طريق الالتماس، في من هو الحاكم الذي يرغبون في ان يولى على لبنان. وطلب أيضاً من الدروز ممارسة نفس هذا الامتياز أما الحق الذي منح على هذا الشكل من كرم الاخلاق، فقد كان يجب ان يقاس ويحوّل ليصبح مساعدا على ترويج السياسة التركية. اكان ذلك عن طريق الرشوة والتزوير ام عن طريق التهديد والتهويل. فصوت الرأي العام يجب أن يخنق بلا رحمة.

ولو كان المسيحيون حتى والدروز مطلقين حقيقة في اختيارهم لما كان هنالك شك بأن الشهابيين استعادوا قوتهم. فإن عددا من مشايخ الدروز حلفاء الامير بشير الكبير القدماء كانوا صوتوا بجانبهم غير أن العمال الاتراك انما ارسلوا بين الناس، ليمنعوا، اذا كان في الامكان، تحقيق هذه الامور. وهكذا فبفعل الرشوة وتحت تأثير الخوف استميل الارستقراطيون المسيحيون جماعات جماعات، بهدايا عادية كفراء وشالات مرفوقة بمواعيد بتوظيفٍ وحظوة، وهكذا متنازلين عن انفع مصالحهم ومتناسين تماماً اختبارهم القديم، والحوادث المستقبلة استميلوا ليصوتوا بالسيادة الدائمة عليهم لنفس هؤلاء الذين كانوا منذ شهر قصير يسكرون بدمائهم ويطأون على ديانتهم.

فالامير الماروني بشير احمد ابو اللمع استميل الى ناحية الأتراك بمنحة كبيرة من الأرض ومبلغ وافر من المال وبدأ يعمل كآله في يدهم في باديء الامر. ولكنه بعدئذ كان عليه أن يعمل في مجالٍ افسح ولنتائج معادلة في نسبتها لعرقلة مصالح طائفته.

وحيث كانت تفشل الرشوة في تأدية عملها كان التهديد واللكم وكل نماذج الاهانة الشخصية تستعمل وتتكردس على المسيحيين التعيسين يجبرونهم على التصويت لحاكم تركي حتى أن عدداً كبيراً في ذلك الحين مات من تأثير ضرب العصا بصورة وحشية. في تلك الاثناء وصل إلى بيروت فيلق مؤلف من الفين الباني وهم من اشد الأشرار الفوضويين، الشرسين، المستبدين الذين لا يمكن ان تجمعهم جامعة ما. ثم همس في الجبل بأن هذه الاوبئة ستعسكر في قرى المسيحيين. فأخذ المارونيون يتخوفون لانتهاك حرمة بيوتهم وأستباحة نسائهم وتشريد اولادهم ونهب ممتلكاتهم. وهكذا انتشر الرعب واصبح عاماً فأمتدت

مئات الايدي المرتجفة بعرائض التماس للسلطان يلتمسون فيها من لطفه وعطفه ان يسمح لهم بأن يكونوا تحت حكم احد الباشوات الاتراك. هذه كانت المقدمات وهذه كانت رحمة الاتراك.

ومع ان الامير بشير قاسم صرف من وظيفته بحق لعدم اهليته لحمل مسؤولية المهمة التي رفع اليها بأنه لم يكن هنالك من ريب بأن المعاملة الخشنة الوحشية التي تعرض اليها في النتيجة، ونفيه العاجل كانت اسبابها الميل لمعاقبته لأنه توصل الى وظيفته تلك بواسطة الحكومة الأنكليزية ولمنفعتها وأنه توسل الى الحكومة تلك ان تحميه وتساعده. ومصطفى باشا في الواقع لم يتردد في اظهار اعتقاده بأنه ما دام يحكم لبنان حاكم مسيحي فهو سيميل كلياً او جزئياً الى دولة أجنبية وأن المندوبين الأجانب يجدون واسطة للتدخل في شؤونه، ليس فقط لحمله على اساءة الظن بالباب العالي بل أيضاً وبالسكان انفسهم. وذلك فقط يعني أنه اذا كان لبنان تحت ادارة مسيحية منظمة فلن يتمكن الاتراك، من سحقه تحت اقدامهم الحديدية لرغبتهم الشديدة ولذتهم في ذلك. وأنه في الواقع، وعلى اشد ما يكون وضوحاً وليس على اقل من ذلك، صدقاً وايلاماً. ان الاتراك مع انهم مدينون باعادة دولتهم في سوريا، على الاعم والاخص إلى اجتهاد الدول المسيحية، وهي حادثة تثير في الصدور الاعتيادية بعض الشعور بالإعتراف بالجميل. فإنهم سرعان ما تهيأوا لتوجيه كل اجتهادهم لمقاومة كل نوع من التدخل الاوروبي في كل البلاد وعلى الاخص في لبنان. بتخويف كل الزعماء الوطنيين من ايجاد علاقة بينهم وبين المندوبين الاوروبيين فألغوا كل الوعود التي قطعت سابقاً وابطلوا كل الامتيازات والتساهل التي كانت ممنوحة لأهل لبنان، بتدخلهم الرسمي.

واحسن طريقة لتنفيذ مقاصدهم في هذا المعنى، وهذا مكر طبيعي فيهم، كانت أنهم يبثون الاشاعات بأنهم مهددون بغزوة احدى الدول المسيحية لممتلكاتهم، ويشيرون الى تجنيد عام وهبة واحدة لكل اتباع النبي الحقيقيين لصد غزوات الكفار.

بذروا بذور التعصب المحقون لكل شيء مسيحي بين طبقات المسلمين المنحطة. كما انهم تزلفوا كثيراً للعلماء والمشايخ المتدينين بتشريبهم روح الاحتقار للفرنج وجذبهم اليهم بكل الوسائل التي كانت ضمن دائرة تأثيرهم وتمنيتهم بالحماية والمكافأة. فيسحقون بلا شفقة كل الذين يشملهم عطف الاوروبيين ويتمسكون بأفتخار بكل الذين

يعاكسونهم.

ولعلمهم بأن الانكليز هم اخر من يتركهم فإنهم كانوا يجدون سروراً خفياً في تعيين قناصل انكليزيين اهدافاً لإهانتهم، وكانوا يهملون، عمداً، حماية مصالح الانكليز، بدون مبرر ليظهروا بفخر انهم مستقلين تماماً عن كل نفوذ خارجي بأمثال هذه الاساليب كانوا يكسبون ثقة السكان المسلمين ويشجعونهم على التظاهر بكبريائهم وصلفهم وقمتهم في تصرفهم نحو غير المحمديين. فهذه هي السياسة اللازمة الثابتة عند الاتراك. انها السياسة الوحيدة، بالرغم من اي اغراء يدعوهم لنهج خطة موافقة لسياستهم؛ التي يتبعونها، لأنهم في عمههم الابدي، يعتبرونها ضرورية لسيادة عنصرهم، وفي النتيجة، أنه من المنتظر بكل ما في الحقيقة وحواشيها من التأكيد المتتابع بأنهم عندما يقطعون وعداً للدول الاوروبيّة أو يتقيدون بأي عهد لتحسين حالة المسيحيين في جميع امبراطوريتهم يبادرون حالاً إلى اثارة تيار معاكس فيثيرون الغيرة الدينية في ابناء دينهم بشكل يجعل تحقيق هذه الوعود، او تنفيذ هذه التعهدات مستحيلاً تماماً، إلا في حالة المخاطرة باثارة التعصب المحمدي الذي يعرض للخطر ارواح وممتلكات نفس المجموع الذي يتعهدون بترقيته وتحسينه وهنا يستعمل تصريحهم المشهور بأن «الاتراك لا يستطيعون اعادة مركزهم المفقود ونفوذهم بدون رجوعهم الى التعصب الديني».

وجد عمر باشا موقفه في دير القمر محاطاً بالصعوبات فمشايخ الدروز فرحين بانتصارهم تصرفوا تصرف المستقل فثبتوا سيادتهم الاقطاعية على المسيحيين وانكروا على أي كان الحق في التدخل بينهم وفي مناسبات عديدة كانوا يتعدون ويسيئون الى المسيحيين الذين على الاخص كانوا مضرين لهم وعندما كان هؤلاء يتقدمون الى الباشا بالتماساتهم يسألونه فيها وضعهم تحت حمايته وانصافهم؛ كانوا يعتبرون هذا اهانة ويقولون «ماذا؟ لقد حاربنالأجل الاتراك وأنتصرنا وقدمنا لهم رشوات هائلة وأعطيناهم حصة كبرى من النهب فهل نقهر الأن بنفس القوة التي اوجدناها»؟

ثم صرحوا فيما بعد انه «إذا جرت أية محاولة تجبرهم على التصرف نحو المسيحيين تصرفاً مخالفاً وعلى اعطاء الاملاك والأرض التي ربحوها وأخذوها منهم فإنهم سيفضحون حالاً اسرار العلاقات التي كانت دائماً موجودة بينهم وبين الاتراك».

وكانت طلبات الدروز مهددة الى درجة أن عمر باشا شعر بضرورة تقوية الجيش

لتثبيت سلطته. ولكن السرعسكر رفض اقتراحه من اجل هذه الغاية بجواب تهكمي يقول فيه أنه كافر وخائن لأختلافه مع الدروز بيد أن التعليمات التي تلت ارشدته إلى اتخاذ تدابير سريعة لإيقاف حركة كانت على وشك التطور الى ثورة وبناء عليه ففي ٦ نيسان دعا خمسة من المشايخ الزعماء الى الغداء وبعد ان انتهى الطعام طوقهم واسرهم. وفي الليلة نفسها ارسلهم مخفورين إلى صيدا. إن هـذا العمل المشتمل على خيانه وقوة اجري ليظهر غايتين:

١ - ليري الدول الاوروبيـة ان الحكـم التركـي يستطيع ان يجعـل نفسـه محترماً فيخشوه.

٢ - ليحدث رعباً مفيداً في الارستقراطية الجبلية، الدرزية والمسيحية معاً ملجوءاً إليه الان خصوصاً من الحكام الاتراك ليثبتوا اهدافهم بجعل لبنان تحت حكمهم المباشر.

لم يكن الدروز بعد بالرغم من الغليان الشديد لالقاء القبض على مشايخهم على استعداد لمهاجمة معسكر عمر باشا في بيت الدين بالقرب من دير القمر، بينما عرض عدد من القادة المارونيين خدماتهم على الاتراك في حالة مهاجمة الدروز لهم. الاخيرون كان من المستحيل عليهم أن يتمكنوا من المدافعة عن أنفسهم أمام هذا التآلف.

وهكذا قسم الاتراك الان برغبتهم العادية ونجاحهم المعهود الدروز الى قسمين، وبعد ان رموا الزعماء المذكورين اعلاه في السجن في بيروت اسبلوا على الآخرين نعمة رواتبهم وعطفهم وبما انهم تمكنوا، حتى الساعة، من تلافي الخطر الدرزي لم يدخروا اي جهد ولم يتوقفوا امام أي تعديل عام ليوجدوا تأييداً عاماً بأن تكون اصوات المجموع في جانبهم على هذا ارسل العملاء الى كل النواحي في الجبل بعرائض مهيأة يلتمس فيها وجود حاكم تركي. وقد استطاع هؤلاء بتزلفهم ان يجدوا جماعات يوقعونها تحت تأثير وعودهم وتهديدهم، وجماعات يوقعونها تحت تأثير الضغط والتعذيب.

لم يكن هناك سوى زعيم مسيحي واحد ذي تأثير صدهم بشجاعة واستمال حزباً لا بأس به، وقد كان أنهم باتباعهم مثل هذا الاكراه، اثاروا بين المارونيين روح استياء جعلتهم يفاجؤنهم بأضطرابات جديدة. عجزت معها الجيوش التي ارسلت لألقاء القبض عليه في حصون بشري إذ هوجمت من قبل الجبليين ومنيت بأندحار معيب وخسائر كبيرة بالارواح. عن تحقيق مهمتها.

ولما راى الدروز ان الفرصة سانحة دخلوا في مفاوضات مع المارونيين ليتوصلوا الى ثورة عامة ضد الحكومة ولو أن مبدأ الوطنية الطبيعي كان مسيطراً في هذه المحاولات للتصالح، بل لأصلح ما يمكن عمله لمقاومة عدو مشترك لكانت القوة التركية اضطرت هي أيضاً إلى التساهل. ولكن الحس الطبيعي، وفقدان الثقة، جعل كل هذه المحاولات من الطرفين تفشل. فالدروز وعدوا بأن يكونوا إلى جانب الشهابيين شريطة أن يبدأ المارونيون الحركة الثورية. والمسيحيون اشترطوا على الدروز بأن يضربوا الضربة الاولى ويقدموا وثيقة خطية ممهورة بامضاءات مشايخهم الزعماء يطلبون فيها شهابياً، كفالة لحسن نيتهم، تدفع إلى الاتراك في حالة تخليهم عنهم أو خيانتهم لهم. وهنا ثار نوع من النزاع بينهم لم يكن من الامكان حله. إذ كانت كل فئة تسيء الظن بحسن نوايا الفئة الأخرى.

كان الاتراك، في الوقت نفسه متيقظين تماماً لاحباط هذا الاتفاق المشؤوم فلم يضيّعوا اي وقت في استعمال جميع الضربات التي اعتادوها في استمالة المارونيين وعلى الأثر صدر امر وزاري - يضع البطريرك تحت حمايته ويعفي عن بعض الزعماء المسجونين بسبب رفضهم تقديم التماس بتنصيب حاكم تركي، ويعدهم بأعادة الممتلكات التي نهبها الدروز، واعطاء سيف لواحد، وشال لاخر او ساعة وبعض مئات من القروش لثالث - كان كافيا لتلطيف الاستياء الماروني والقضاء على الحملة المهددة.

هذه هي الطريقة التي تمكن بواسطتها الاتراك ابداً من الاحتفاظ بقوتهم. ليس بتوطيد سيادتهم، كما يتوجب على الحكومة القانونية. ولكن بالتلاعب واثارة قبح نواحي الطبيعة البشرية كأثارة طائفة ضد طائفة، وايجاد حزب آخر، بالرشوة والمكايد في الطائفة نفسها. وبارشاء الساقطين ليخونوا اقرباءهم، وديانتهم، وبلادهم وبقطع كل الروابط التي توجد الثقة والمسرة في بني الانسان.

وبهذه الصورة جاهدوا اشهرا قلائل لاحباط المؤتمرات التي كانت تهدد مركزهم المؤقت. واخيراً وصل التصبر الدرزي الى حدوده؛ فقرروا أن يخلعوا رداء حقارتهم للأتراك - مع أنهم كانوا منفردين، وهنا ظهر الان زعيمهم المشهور شبلي العريان قائداً لهم وفي نهاية تشرين الثاني سنة ١٨٤٢ زحف تحت قيادته آلاف منهم الى بيت الدين حيث احتلوا الهضاب المجاورة، وقطعوا مجاري المياه وحاصروا الفيلق التركي الذي كان على راسه عمر باشا بنفسه. والدروز بانتصارهم على مفرزة من الاتراك تشجعوا وتمسكوا

بمطاليبهم فالحوا في طلب اطلاق سراح مشايخهم وصرف عمر باشا من وظيفته حالاً واعفائهم من قانون نزع السلاح.

وفي المفاوضات التي جرت اخبرهم الحكام الاتراك ان السبب الوحيد في التصرفات الاخيرة كان تمنعهم عن دفع التعويضات التي يطالب بها المسيحيون عالياً. وهذه حجة بارعة قصد منها غسل هذا الكره العام عن انفسهم من جراء هذا الطلب. وشبلي العريان لم يتجنب أو يتحاشى الامر بل ارجع الضربة الى الاتراك فصرخ بجرأة ان على الاتراك وحدهم أن يدفعوا هذه التعويضات، لأنهم في السنة الماضية وتحت تأثير الوعد بالمكافآت اغروا الدروز بالانقضاض على المسيحيين ولأن الدروز انفقوا فعلاً ٣٠٠ ٠٠٠ ليرة في رشوات لموظفي الباب العالي في سوريا ومن جملتهم الوزير الكبير نفسه في القسطنطينية.

اراد الاتراك الان وقد اهينوا، ان يوطدوا سلطتهم ففعلوا وكانت لحسن حظهم حركتهم ناجحة.

فزحف جيش من الاتراك والالبانيين مع مدافعهم باتجاه دير القمر من صيدا وهاجموا القوى الدرزية من الوراء، بينما صادمهم عمر باشا بجيشه وعدد كبير من الفرسان المارونيين بقيادة زعمائهم، من الامام. وبعد مقاومة عدة ساعات انسحبوا بجرأة وتمهل وتفرقوا في عدة جهات. فهرب مشايخهم الزعماء الى جهات حوران. بينما استسلم شبلي العريان، يائساً لمخالفة الحظ له والمفاجأة غير المنتظرة لوالي دمشق ولكن ليس بدون أن يكون قد تعرض الى تهمة قوية بأنه ارتشى ليخون ابناء بلاده ويهمل قضيتهم.

والباب العالي تخوفاً من الحملات التي كانت تصل اليه من كل الجهات من سوء التدبير الحاصل في لبنان، ويكون غير مستعد لمقاومة ما كان يظهر انه استعداد للقيام بثورة عامة، وجد نفسه اخيراً مضطراً لمسايرة الظروف. فقرر نهائياً أن يكون من الطائفتين حاكم من مذهبها وقوميتها. وفي اليوم الاول من كانون الثاني سنة ١٨٤٣ عين الامير حيدر ابي اللمع والامير احمد ارسلان قائم مقامين للمسيحيين والدروز بالتتابع.

وهذا الحل العادل الوافي حسب ظاهره لهذه القضية المزعجة كان فقط مثيراً لصعوبات اعظم وارتباك جديد. فلو ان جميع المسيحيين كانوا مقيمين في ناحية واحدة من الجبل، وجميع الدروز في ناحية اخرى ضمن حدود معينة لكان هذا الحل قابل التنفيذ بقدر ما كان سهلاً. ولكن الالآف من المسيحيين الروم والمارونيين كانوا يعيشون في مقاطعات

الدروز كخدم اقطاعيين لمشايخ الدروز الذين كانوا يمارسون هذا الحق عليهم بالأرث من والد إلى ولد منذ اجيال. والحكم المباشر من الحاكم المسيحي على المسيحيين باستعمال سلطته عليهم اينما كانوا مقيمين، يقضي على هذا الحق، ويستأصل هذه الامتيازات التي يعتبرها الدروز من دعائم قوتهم. وفي الحقيقة فقد كانت المحاولة هذه هي نفس المحاولة، التي جربها البطريرك، في السنة الماضية وكانت سبباً للحرب الاهلية.

اما المارونيون، المقيمون بين الدروز فقد نظروا إلى هذا الانقلاب نظرة مخالفة فأعتبروا الامر محاولة لتخليصهم من الاسر الدرزي.

وهكذا خلق مصدر جديد لتجديد الكره الكاوي والعداء بين الطائفتين بيد أنه كان واضحاً ان المسيحيين الروم رفضوا بشدة قبول هذه النعمة وصرحوا بأنهم يفضلون حكم الدروز عليهم. وهكذا كذبوا تأكيد المارونيين المتكرر بأن المسيحيين لا يكونون مسرورين تحت سلطة الدروز، وانهم يفضلون الموت على الخضوع لظلمهم الشديد. والحقيقة كانت، ان المسيحيين الروم وجدوا ملجأ في كنف زعماء الدروز من التعصب الشرس واضطهاد البطريرك الماروني واساقفته الذين منذ ان اعتنق الشهابيون مذهب الروم الكاثوليك جعلوا العضو الحاكم من تلك العائلة الة في ايديهم لنشر وتوسيع نظرياتهم الدينية وسلطتهم على لبنان كله ومع ان القائمقام المسيحي المعين من جديد لم يكن شهابياً فانه كان، مارونياً مجتهداً بلا ريب لنفس النفوذ. هذا كان يعرفه المسيحيون الروم فكانوا يتخوفون من اوامر بطريركية جديدة يجعل بواسطتها حقوقهم الدينية والزمنية، لا مهملة فحسب، بل مرماة جانباً بلا رحمة. فممتلكات اديرتهم أخذت منهم بحجج منمقة، وعملية ادخالهم في الدين كانت تجري بوسائط غير لائقة من تخويفٍ وإتلاف في الممتلكات والاموال. ولم تكن لتتوقف إلا عند الاعتراف بالكثلكة. واذا كانت السلطة المارونية تعامل المسيحيين هكذا. فهل من الغرابة ان تكون وقعتها على الدروز شديدة الوطأة! أن هذا التفضيل من قبل الروم لهو حقيقة هامة ومفيدة. انها تبرهن ان الدروز لم يستعملوا قوتهم وبأسهم ضد المسيحية بل ضد الجشع والغرور الماروني وأهداف التوسع الكهنوتي العنيف.

اسبوع بعد اسبوع وشهر تلو شهر مرت في محاولات فاشلة لايجاد وضعية عامة تمتزج فيها فروقات الطائفتين. فلا واحدة منها كانت تتنازل عن حقوقها أو ادعاءاتها،

والدروز رفضوا بعناد طبيعي قبول تدبير يقدرون بوضوح انه سينقص نهائياً كيانهم السياسي الى ضعف محتم وكسر معنوية. والمارونيون مدفوعين من قبل الاكلروس جاهروا بشدة ضغط النير الدرزي وحرصوا بتقريرهم على عدم الرضوخ له ثانية.

فالمفاوضات والمؤتمرات التي كانت تعقد بحضور الحكام الاتراك والتعهدات بالمراقبة والحماية من قبل الدول الاوروبية والاقتراحات المعاكسة والفرضيات بأن المارونيين المقيمين بين الدروز تتوفر لهم التسهيلات اللازمة للمهاجرة، وأن لهم الحق في تعيين مندوبين منهم ليمثلوهم ويراقبوا مصالحهم مع الحكم الدرزي كانت كلها بلا جدوى. واخيراً وقد هاج البطريرك الماروني غاضباً مستاءً وارعد مهدداً، «السيادة أما مارونية أو درزية» قال في تصريحه «الواقعة ستقع ومن يضرب الضربة الاولى ينال نصيبين مقابل نصيب واحد» حكمة، مع كونه هو أول من تلفظ بها كنظرية، فقد كان الدروز كالعادة عالمين جيداً كيف يضعوها على حسابه موضع التجربة.

كانت مواد الخلاف كثيرة فأنفجرت من جديد. وكان المارونيون كالسابق، هم البادئين بالاستخفاف وبدأت حوادث القتل واجراءاتها الضرورية تعطي دلائل العاصفة القريبة فتوقفت الاشغال العامة والاعمال الصناعية واعلنت الفئتان استعدادهما فارسلا الطلائع كأنهما جيشان يلتحمان في معركة.

استعمل الاتراك سياستهم التي لا تتغير ثانية، مسرورين بتجدد مصائب المسيحيين. وبتصورهم الدائم في شق طريق على اجسامهم الميتة ومنازلهم المهدومة توصلا الى اطماعهم واهدافهم الجشعة. منهمكين باستمرار في استعمال يدهم الخفية للدس منبهين الدروز الى عدم قبول اي شيء من الطلبات الجائرة للمسيحية الوقحة. بينما في الوقت نفسه، بعيدين عن وقف النزاع شجعوا المارونيين كل التشجيع لمهاجمة الدروز بالتصريح لهم بانهم معطون الحرية ليقوموا بذلك.

ولما كان المارونيون قد اعطوا مجالاً واسعاً لاستعداداتهم فانهم لم يتكتموا في تظاهرهم فصرح الشهابيون علناً بأن الاعتماد على السيف امر ثابت. امر مقرر في مجتمعاتهم وممهور بخاتم اليأس. كذلك اعلن المارونيون في المقاطعات المختلطة «لا نقدر أن نعيش مع الدروز ففئة منا يجب ان تضمحل او تترك البلاد» بينما زادت استعداداتهم العدائية وتنظيمهم الحربي باسماء عسكرية مع عدم التوقف عن شراء الاسلحة والذخيرة في اثارة

شعور الدروز ، الذين كانوا مهتاجين من محاولاتهم السابقة لهدم استقلالهم، ومرارتهم.

وفي دير القمر اصدر المجلس البلدي للمارونية اقسى الاوامر لابناء مذهبهم، في عدم المخالطة بصداقة او اي نوع اخر من العلاقات مع الطائفة المعادية وذلك تحت طائلة عقاب الموت للمخالف وقد تشددوا في اوامرهم فقضى الموت على راهب ماروني تعيس لانه كان على صلة مع الزعيم الدرزي سعيد بك جنبلاط. وكذلك كانت ارواح الاخرين الذين عصوا اوامرهم ملاحقة بينما ضرب عدد كبير وجرح. ومثل هذه الاساليب الصارمة اوصلت الى النتيجة المرغوبة. ففي وقت قصير لم يعد الشركاء المسيحيون يجسرون مع انهم كانوا يرغبون عكس ذلك سراً، على الاقتراب من اسيادهم الدروز. وفي بعض الاماكن رفضوا دفع المدخول لهم فالكلام مع درزي اصبح مخالفة والتعامل معه كان يعد خيانة.

استلم البطريرك الماروني من فرنسا والنمسا مبالغ كبيرة لأجل تغطية الفاقة المزعجة التي وصل اليها المسيحيون في حوادث الحرب الاهلية الماضية. فخصصها مالاً لحرب ثانية وفوض اتباعه الاكليروس بأن يدفعوا لكل محارب اربعة غروش يومياً، ويشتروا السلاح والذخيرة اينما كان تحصيلها ممكناً لعلمه ان مجموع المارونيين الكبير لن يشترك في حرب لمجرد القضاء على حقوق الدروز السياسية فقط ان المتعصبين منهم في الحقيقة كانوا مقتنعين بأن الحرب الحزبية اصبحت حرباً دينية. فالدروز اعداء الصليب، الكفار يجب ان يُمحوا أو يطردوا من البلاد.

وليس هنالك ادنى شك بأن الاكليروس الماروني كان يأمل أنه بايقاظ اعمق شعور الكره والتعصب الديني في اتباعه يمكّن المجموع المسيحي من التمتع بنفوذ في لبنان يتعادل مع قوتهم التي كان العنصر الدرزي يحول دونها. ثم اليس المعقول أن يكونوا وجهوا افكارهم فيما لو نجحوا في خطتهم هذه لتحرير المسيحية من عقبة اخرى ـ الحكم العثماني!!.

عقد اجتماع كبير لكل مشايخ الدروز الرئيسيين ـ في المختارة مركز سعيد بك جنبلاط حوالي اخر شهر كانون الثاني في سنة ١٨٤٥ مما دل أن الدروز كانوا في حركة. والدروز وإن كانوا في الاوقات العادية قسمين أو حزبين متأثرين بروح الحسد الطبيعية فانهم اوقات الاضطراب الاهلي، تجتمع كلمتهم على زعامة العائلة الجنبلاطية في عقد

المؤتمرات أو في العمل. كان في اوائل القرن الحالي رئيسها الشيخ بشير جنبلاط الحاكم الحقيقي للبنان وكان له من غناه الفاحش وعدد خدمه واتباعه الكبير ليس فقط في طائفته بل ايضاً بين المارونيين ما جعل نفوذه قويا.

لقد تقاسم لمدة طويلة مع الامير بشير الشهابي كل الاعمال الحكومية. ولكنه لما شعر اخيراً بأن هذا الاخير وجه نظره الى رفع مستوى المجموع المسيحي الى مركز يضع السيادة الدرزية المزمنة في خطر وقف ضده في صدام علني. ومع انه قاد الى الميدان عدداً قوياً عديداً واشترك معه في ذلك عدد من زعماء المسيحيين المارونيين واتباعهم، فقد فشل في محاولته، وذلك في الاساس لاشتراك فرقة تركية الى جانب الامير بشير أنجده بها في ذلك الحين الجزار والي عكا. وبعد ان نجا الشيخ بشير من المعركة القي القبض عليه وأُخذ اسيراً الى عكا حيث قضى عليه الجزار بالموت.

واولاده الثلاثة الذين كانوا في ذلك الوقت اطفالاً مكثوا في المنفى طيلة المدة التي بقي فيها الامير بشير في الحكم، ولكنهم ارجعوا ليشاهدوا مركز اسلافهم خراباً، وذلك عندما رجعت الحكومة التركية الى مركزها في سنة ١٨٤٠ ونعمان بك الاكبر اعتزل الناس تماماً بعد حرب سنة ١٨٤١ الاهلية بوقت قصير. واسماعيل الاصغر ارسل الى انكلتره ليتعلم ولكنه بعد غياب سنة واحدة فقط رجع مختل الشعور تماماً ومات بعد بضع سنين مصاباً بجنون لا يرجى شفاؤه وهكذا انحصر الاسم والغنى والجاه الجنبلاطي في سعيد بك وحده وهذا الشاب القوي اظهر في الحرب الاخيرة براهين على شجاعته ببروزه في المعارك الدموية؛ صفات اهلته كثيراً لموافقة نزعة الدروز الجريئة القاسية. فضلاً عن أنه استحصل باكراً على عطف بل وحماية رسمية من الحكومة الانكليزية، التي رأت، في قوته وسيادته الفعالتين، وسيلة لأن تؤسس بين الدروز نفوذا سياسياً يوازن النفوذ الذي لفرنسا مع المارونيين. وهكذا فانقضاء شهرين على ذهاب واياب الحرس المتواصل والمؤتمرات السرية في الليل وفي النهار والانفاق فوق العادي على الضيافة برهن أن ديوان سعيد بك كان في عمل دائم مستمر.

والمارونيون، من ناحيتهم. عقدوا اجتماعاتهم واصدروا اوامرهم وشجعوا المسيحيين بواسطة مناشيرهم المهيجة على انتظار ساعة التجربة. وهكذا تقدم الامراء الشهابيون للقيادة بفرح. وجعلوا مركز الاجتماع في عبيه حيث كان على جميع المسيحيين المقيمين في

المقاطعات المختلطة ان يتجمعوا. فقد قرروا القتال والمجازفة بكل الاخطار لاعادة الامير بشير الكبير حاكماً فرداً على الجبل. والاكليروس الماروني دعوا الى الحرب المقدسة في كنائسهم وقادوا قطعانهم بأنفسهم الى اماكن الاجتماع.

اما الدروز، فحسب تدابيرهم الاعتيادية أو بالاحرى استرشاداتهم تظاهروا بأنهم شديدي التخوف من هذه الاستعدادات العدائية فتوسلوا الى الجانب التركي لمنع هذه المصائب الحربية. وقد وافق القناصل الاوروبيون برغبة على هذا الشعور السامي المحمود واجبروا الجيوش التركية على الخروج الى المراكز التي فيها اصطدامات مهددة. أما الاتراك فقد تريثوا بحجة انتظارهم لمفاجأة الحوادث. مظهرين كل رغبتهم واهتمامهم في وقف اراقة الدماء بالتدخل العملي وباستعمال كل سلطتهم المطلقة بدأوا فيما بعد بوضع قواهم في مراكز معينة مزودين بتعليمات تمكنهم من اعطاء مساعدة فعلية وعملية للدروز وسحق المسيحيين، الذين اطلقوا عليهم في اكثر من حادثة واحدة النار الحامية.

وفي شهر نيسان سنة ١٨٤٥ انفجرت العاصفة التي تراكمت مسبباتها بهجوم عمومي من المارونيين على مراكز الدروز ففي مقاطعة الشوف كانوا مقادين بواسطة احد مطارينهم يتقدمهم والصليب بيده بعد ان اخذ الاذن بالهجوم من احد الموظفين الاتراك الذي كان مركزه هناك. وفي اول الامر ساقوا كل شيء امامهم فاحرقوا وهدموا أربع عشرة قرية وتقدموا الى سور المختارة ذاته هنا عقدوا النية على انتصار عظيم، ولكنهم فوجئوا باندحار تام إذ أن فليقا تركيا كان متمركزاً امام قصر سعيد بك استقبلهم بنار حامية من البنادق صدمت بها نفوسهم الثائرة.

وفي عبيه، بعد صدام عنيف، اندحر المسيحيون الذين كانوا بقيادة الامراء الشهابيين اندحاراً تاماً. وحوصر هؤلاء الاخر بشدة في قصورهم، من قبل الدروز. بينما كانت الجيوش التركية تراقب هذا النزاع بعيني المتفرج الهادىء. وسلم الاول في النهاية انفسهم كسجناء وسيقوا الى بيروت بواسطة الكلونيل روز بنفسه. امثال هذه الالتحامات جرت في كل نواحي لبنان بمثل هذه النتائج. فالاتراك اينما وجدوا كانوا يعملون كمساعد احتياطي للدروز. وحينئذ عادت الحكاية القديمة: من قرى ملتهبة، وممتلكات منهوبة، ومسيحيين هاربين يتبعهم الدروز والاتراك غير النظاميين فيسلبونهم ويعذبونهم ويذبحونهم. فآمال المارونيين بالسيادة تشردت في الهواء والمسيحية نفسها خُدعت، واهينت وحقرت.

وُجهت السياسة الحاذقة الى القسطنطينية ثانية لايجاد وسيلة تسحب العناصر الهدامة لهذه الاعصار الوقتي المتكون من خيانة الاتراك وفسادهم والطمع الاسقفي الماروني، والحقد الدرزي. فأرسل شكيب افندي في مهمة خاصة الى سورية حوالي نهاية سنة ١٨٤٥. وبعد فحص طويل وعدة تحقيقات ركزت الحكومة اللبنانية على ما كان يرجى ان يكون قاعدة اساسية دائمة.

فالنظرية الاساسية لايجاد قائم مقامتين ثبتت واصبح لكل واحدة مجلسها المنفصل حيث كان للطائفتين ممثلون. وفصلت الحدود الجغرافية بين الطائفتين وثبتت الحقوق الاقطاعية للدروز على المسيحيين المقيمين بينهم قانوناً، كما وأنه عين لهؤلاء الاخر مندوبون مع كل زعيم درزي حاكم ليصون حقوقهم. فالحكام الاتراك يتعاملون في الجبال مع القائم مقامين فقط، وقوة هؤلاء وحدها كانت مسؤولة عن دفع الضرائب والمتأخرات منها وحفظ الامن.

ولكن المسيحيين في دير القمر، يائسين من الوضعية التي وجدوا انفسهم فيها، من أنهم ممثلون اسميا بواسطة مندوب عنهم، تحت الحكم الفظيع الظالم للشيخ الدرزي ابو نكد ومدفوعين سراً الى هذه الخطوة بواسطة الاتراك، رفعوا عرائض التماس وخضوع يطلبون فيها حاكماً تركياً. والمنحة اعطيت لهم غير أن الاهانة التي وجهت الى هؤلاء الدروز كمنت في اعماق قلوبهم. فانهم لم ينسوها أو يصفحوا عنها. فقد عاشوا سنين عديدة على مرأى من تراث اجدادهم ولكن بعيدين عنها. لقد نظروا اليها تكبر وتنمو وتتقدم حتى اصبحت مجموعاً مسيحياً غنياً زاهراً ولكن ضمن حدودها لم يبق لهم كالسابق مدخل أو نفوذ اقطاعي. ولم يمروا بذلك دون أن يصرُّوا على اسنانهم غير انهم احتملوا ذلك صابرين الى حين.

الفصل الرابع

١٨٥٦ المساحة والاحصاء - ازدهار دير القمر - زحلة وحاصبيا مدن مسيحية في المقاطعات الدرزية - تعنت البطريرك الماروني.

الفصل الرابع

واجه الاتراك الطريقة الجديدة بارتياح جاف وقبول مغتصب. فانهم لم يربحوا شيئاً. أن دسائسهم الفعالة وتدابيرهم الاجرامية عجزت على السواء عن تحقيق غايتهم فلبنان بقي بعيداً عنهم بعده المعتاد. كل البعد، غير اننا بدلاً من تتبع الحوادث المختلفة، ذات الاهمية الكبيرة والصغيرة تلك التي تظهر تاريخ الدروز والمارونيين في السنوات القليلة التالية. تلك التي لا يمكن أن يكون لها تأثير ابعد من تأثيرها المحلي، فسننتقل حالاً الى سنة ١٨٥٦ ومنها نلقي نظرة عامة على الوضع السياسي والاجتماعي الذي تتمتع به الطائفتان.

أن القائمقام المسيحي، نظراً لسمو النوايا التي اظهرها بعدله في احكامه، ارضى عموم ابناء طائفته المسيحيين والمقيمين ضمن نطاق نفوذه من المذاهب الاخرى حتى وفاته في سنة ١٨٥٤. ولكن الاتراك لم يتركوه وشأنه. فقد دفعوا سراً الامير بشير ابو اللمع صنيعتهم المجرب المتفوق، ليحاولوا، ضمن نطاق حكمه، قذف المقاطعات المارونيّة الى حالة اضطراب شديدة وذلك حوالي سنة ١٨٥١.

فالهدوء المستتب والتقدم المطرد للمسيحيين كان مزعجاً لشعورهم وبرهانا واضحاً على أن دستور شكيب افندي كان ناجحاً. أمّا رسُل الامير فقد كانوا على الغالب يثيرون المشاغبات فيرفعون العرائض ضد القائمقام، ويتظاهرون بشيء من القوة بقطع الطرقات وعرقلة الاجراءات القانونية للموظفين. والاخير رفع امره، بدون ثمرة، إلى الحكام الاتراك لاخذ تدابير حازمة لقمع هذه الروح التي تفسد في ادارته، وبهذا اصبحت قوته وسلطته مهددة جداً.

ولكن، لحسن حظ لبنان وسلامته أن كان لانكلترا سفير في اسطنبول هو اللورد ستراتفورد ده ردكليف Lord Stratford de Redcliffe الذي كان يـراقـب بعين اليقـظ

مصالح لبنان ويعرف، في الوقت نفسه، كيف يجعل الاتراك يحترمونه ويطيعونه وهكذا فقد استطاع بتدخله الحازم القوي الحكيم ان يحبط كل حيلهم، ويشهر كل نواياهم ويحول جميع اعمالهم الى الجهة الصحيحة. وفي مدة قصيرة وجد صوته المؤثر موقفاً في مؤتمرات الاتراك ومجالسهم. وقضى قضاءً طبيعياً على الحركة الموجهة ضد القائمقام.

اما الدروز، فنظراً لقوة بأسهم من جهة، وفي الاساس للمعاضدة المعنوية والمادية التي كانوا ينالونها من الاتراك، تمكنوا من توطيد حقوقهم ودحر الجشع الماروني. فإن قوميتهم اصبحت معتبرة ومصانة وامتيازاتهم الاقطاعية حتى على المسيحيين قانونية. انهم لم يصلوا قبلا إلى رفعة وسمو اكثر ازدهاراً وتشجيعاً. وحوادث السنوات الاخيرة، من منازعة دائمة مع المسيحيين، تلك التي اشتركوا فيها، والانتصار الذي خرجوا به من هذا الصدام لم يفعل فعلاً غير طبيعي بتعزيز شعورهم وحقدهم الطائـفي وتوليده في صدورهم شعوراً بالتفوق في الشدة والشجاعة.

وهكذا، فانهم مع مرور الزمن بدأوا يعاملون المسيحيين الموجودين ضمن دائرة حكمهم بضغط متزايد. والمندوبون الذين كانوا معينين مع الزعماء الدروز ليكونوا مساعدين في الحكم في حالة خصام أو تعدّ بين مسيحيين ودروز وجدوا أنفسهم حالاً مهملين تماماً ومجبرين على الوقوف مكتوفي الايدي امام الظلم والارهاق. وقد بلغ الظلم والتعدي في بعض مشايخ الدروز إنهم كانوا يقومون بغزوات الى القرى المسيحية، كما كانت تملي عليهم مخيلتهم فكانوا ينزلون فرسانهم على نفقة السكان ويبقون هناك الى ان يجبى لهم مبلغ معين من المال وكانوا خلال ذلك يأخذون المواشي، وفي حالة المقاومة أو العناد يعرضونهم الى اقسى انواع العقوبة. والنساء المسيحيات لم ينجون من ثقالة الدروز، بينما لم يُلجأ الى الاغتصاب ابداً.

كان سعيد بك جنبلاط من جملة الاقطاعيين السلابين المغتصبين القليلي الذمة. ان تعديه وجشعه غير القانوني كان يشمل اغتصاب، املاك الدروز والمسيحيين على السواء. فمع كاتم سره وعميله الوفي كيس من اختام المسيحيين. كان جاهزاً على الدوام لتسهيل نقل الممتلكات نقلاً قانونياً كاذباً، من مال أو عقار، وعند الحاجة مدافعة عن النفس، لتوقيع شهادات تنعته بالرحمة العامة والانسانية وما كان نزوله السنوي الى البقاع في وقت الحصاد الا غزوة هدامة. فقد كان على الفلاحين المساكين التعيسين أن يقدموا تحت الضغط والقوة

ثلث قمحهم وشعيرهم بنصف اثمانها وكانوا مجبرين على نقلها مسخرين الى المختارة.

وعند وصولها الى حواصله كانت تكال بطريقة تنقص في سعرها ومقدارها ثم يحسب عليهم العجز الى سنة ثانية بفائدة مضاعفة ومركبة. ولو ان احد المسيحيين نزل ليشكو ظلامته الى الوالي في بيروت لأبطلت هذه الشكوى بهدايا من زيت أو عسل أو تنباك، الى تلك السلطة، من قبل زعمائهم المستبدين. وفي بعض الاحيان كان هؤلاء المساكين يجرون انفسهم الى القنصلية الانكليزية، باعتبارها المحكمة التي يظهر فيها الحق عالياً ويقضي على الضغط وتظهر العدالة لاعتبار اخر أيضاً هو أن سعيد بك كان تحت الحماية الانكليزية.

ولكن سعيد بك كان ذا ادارة قوية ومهمة نظراً لنفوذه السياسي بحيث لا يمكن التدخل معه حتى بصورة عادية. ولو فرض انه كان مؤاخذاً بما كان يعمله من مخالفات، فانه لم تؤخذ، ولا خطوة واحدة، للاختلاف معه وتجريده من الامتياز الرفيع، من هذه العلاقة التي كان يسيء اليها، ولن يسمح بأجراء ملاحقات ما فيما لو اخذت التدابير لاجرائها. وهكذا ففي هذا المركز ايضاً اصبح المسيحيون فريسة لاعتقادهم المخدوع بالحصول على الانصاف، حتى أنهم عند رجوعهم الى بيوتهم لم يكونوا معافين من ان يعترضهم رجال سعيد بك ويضربونهم الى ان يغمى عليهم أو تسيل الدماء من جراحهم البليغة.

ومن المؤكد أن صبر الحكومة الانكليزية على حماية ومناصرة هذا الزعيم الدرزي متغاضية عن مخالفاته، لم يثر غضب المسيحيين العادل فحسب بل كان له تأثير قبيح في الدروز انفسهم. لانه اعطاهم اقصى تقدِير خاطىء عن اهميتهم في نظر تلك الحكومة. انه شجع الدروز على التمادي في احتقار المسيحيين كمجموع وفي كرههم. ومن المؤكد الثابت، ما كانوا يجادلون به، من أن الحكومة الانكليزية تفضلنا على غيرنا وان الحكومة الانكليزية، مهما فعلنا، لن تهملنا ولن تضعف شأننا، أما المسيحيون فانهم بلا ريب ذوو اهمية ضئيلة في نظرهم. وقد كان هذا الشعور قوياً، وكانت هذه الطريقة في التفكير موافقاً عليها في الظاهر ومنتشرة بين الدروز بحيث انهم في المذابح الاخيرة كانوا يعتقدون أنهم يقدمون خدمات جليلة للحكومة الانكليزية باستئصال طـائفـة كهنتهـا ينعتهـم بالهراتقة، الماسونيين، الكفار.

ان هذا الكره العام من الدروز نحو المسيحيين الذي يختلف تماماً عن شعورهم نحوهم

في الزمان القديم من تاريخهم لا يمكن نسبته الا الى تلك التحديات المثيرة للشعور، والتي اوجدت هذا التغيير في الاخلاق والتي نتجت عن المضايقات المقصودة والمحاولات المتكررة التي لجأ اليها القادة المارونيون: الزمنيون والروحيُّون، للقضاء على سلطتهم الاقطاعية واضعاف نفوذهم وهضم حقوقهم ونهائياً التخلص منهم جميعاً. فالامير بشير القديم، الماروني، خلال حكمه القاسي في لبنان فرقهم تقريباً قطعاً صغيرة بعصا من حديد. ولما حاولوا عند سقوطه تنفس الصعداء وتمنية انفسهم بايام احسن واجههم الماروني ثانية بوجوب الخضوع الى اوامره او تحكيم السيف.

فليس من العجب إذن أن نرى الزعماء الدروز، عندما ثبتوا اقدامهم على القمة التي اوصلهم اليها النظام الجديد: حاكمهم منهم ومن بين صفوفهم، وهم انفسهم في حالة استقلال تام مطلق، وبعيدين حتى عن ظل الحكم المسيحي؛ يتمتعون بتلك النفسية من شدة البأس التي هي خلقية ملازمة لهم، وينغسمون في تلك التصرفات التي هي حتى بين الشعوب الاكثر نضوجاً، جلية الوجود في الحالات التي تكون فيها القوة مطلقة وغير مسؤولة.

ومع صرف النظر عن حرية العمل التامة والحرية المطلقة التي نالها الدروز من المركز الاعلى، فالمسيحيون كانوا يفاخرون ويجاهرون ويشيرون الى اكثر من مركز واحد من مراكز القوة والازدهار التي كانت تؤدي الى قبس ينير امامهم ويعمل على وقف اعمال الدروز غير القانونية. فالمدينتان زحلة ودير القمر انما بعثهما الى عالم الوجود، الامير بشير القديم في القسم الاخير من ايام حياته عندما اصبح في خضوع متزايد بين ايدي الاكليروس، لموازنة سيادة المجموع الدرزي. فدير القمر واقعة في قلب المقاطعة الدرزية على مسافة عشرين ميلاً من بيروت وثمانية عشر ميلاً من صيدا. وقد بنى سرايتها القديمة الامير فخر الدين المعني الذي جعلها مركزاً لحكومته في اول القرن السابع عشر والمعنيون امتلكوا بعقلين بعد ذلك وهي على السفح المقابل يفصل بينهما وادٍ عميق.

فالشهابيون الذين خلفوا المعنيين حوالي ابتداء القرن الثامن عشر تمركزوا في دير القمر، في ذلك الوقت غير ملتفتين الى موقعها الهام كقرية صغيرة متأخرة يقطنها الدروز. وتحت حكم الامير بشير ارتقت الى ان اصبحت بلدة ذات شأن يسكنها عدد غفير من مارونيين وكاثوليك يبلغ عددهم في المدة الاخيرة ثمانية آلاف نفس. واشتهرت بمصانع

الحرير. فالتجار فيها بنوا بيوتاً فسيحة ذات ساحات رخامية ومياه متدفقة واثثوها برياش فاخر ثمين. وكل محصولات القرى الدرزية في الجوار تسربت الى ايديهم. وهكذا بلغوا في النهاية مركزاً من الغنى وسعة العيش اثار حسد ونقمة اسيادهم الاقطاعيين المشايخ الدروز من عائلة ابي نكد.

ومذ ان ضللوا بواسطة مؤتمرات البطريرك الماروني غير الحكيمة واقنعوا بالاشتراك في الحملات التي كانت توجه ضد السيادة الدرزية معرضين انفسهم الى مقت وكراهية الزعماء الذين كانوا بكثير من الصعوبة يغضون النظر عن تقدمهم الذي كان بنفسه مزعجاً لكبريائهم. بعد ان تحرروا من الضغط الذي كانوا رازخين تحته في تلك الوضعية، ووضعوا تحت سلطة حاكم تركي؛ فالمسيحيون في دير القمر تمتعوا بازدهار وتوسع غير معارض في جهادهم التجاري. فتكردست الاموال عند رجالهم المعروفين، واقتنوا الخيول، ولبست نساؤهم وبناتهم الاثواب الحريرية والطيالس ورهجن بالمجوهرات من ذهب ولآليء وماس. اما الدروز القلائل الذين مكثوا في البلدة فقد اضعفوا الى اقصى ما يكون من عدم الاهمية وكانوا مجبرين على التصرف بهدوء ولين، فكانوا يستعملون تعبيرهم الخاص بهم مردديه في قلوبهم بحرقة ومرارة «اصبحنا عند المسيحيين قطاعي حطب وسقايين».

ومسيحيو دير القمر تخلقوا في مخاطبتهم العامة مع الدروز بخلق المستقل، الوضع الذي توصلوا اليه عن طريق الامتياز الذي جعلهم منعتقين من سلطة الدروز. فعربدوا بخيلاء وعجب متفاخرين بأن عندهم الفي محارب مستعدين، عند الحاجة، لمنازلة ثلاثة اضعاف عددهم من الدروز؛ ولا ريب في صحة هذا فيما لو كانوا متحدين وتحت قيادة صالحة. وتدخلوا ايضاً وعلى الغالب بنجاح، في حوادث الضغط الدرزي على المسيحيين في جوارهم. وكان الدروز الذين يختلفون الى اسواقهم ومخازنهم مجبرين على التحلي بسيرة حسنة بتحفظ ولياقة. وكل محاولة لاثارة خلاف او مشاغبة ما من جهتهم كانت، بلا ريب، تقمع وتطفأ بحزم واحياناً بالتحقير والاهانة واحياناً باللكم والضرب؛ حتى ان مشايخ الدروز انفسهم كانوا يشعرون عندما يمرون في هذه البلدة بأنهم مكسوري الشوكة.

ومسيحيو دير القمر كانوا يراقبون بخوف كلي فتح اي باب يهددهم بعودة مشايخهم

القدماء. ولما اراد بشير بك ابو نكد منذ سنتين فقط ان يبني بيتاً في قطعة ارض تخصه، على بعد ميل من البلدة ارسلوا اليه ان يعدل عن فكرته؛ واتبعوا الرسول بتهديد يقولون فيه انهم سيهدمون بنفس السرعة التي يبني بها وكل المفاوضات التي تلت كانت بلا جدوى فالمسيحيون لم يلينوا واشير على الشيخ بالتراجع عن عزمه. وقد فعل ولكن بعد هذا التصريح الخشن والذي كان في الحقيقة نبؤة **«هؤلاء الكلاب اني سأدك اساس بيتي بجماجمهم»**.

اما زحلة البلدة التي كانت ضمن نطاق القائمقامية المسيحية فقد كانت، اذا استثنينا بعض عائلات الروم الذين بينهم، تترقى بسرعة غريبة، الى مركز رفيع من الازدهار وعلو الشأن. فبلغ عدد سكانها ١٢٠٠٠ نسمة كان بينهم ٣٠٠٠ ناقل سلاح يتمتعون بسمعة معتبرة ويشتهرون الى مدى بعيد بالجرأة والشجاعة اما صناعة اهلها فالمتاجرة بالصوف. انهم يجلبون الغنم من شمال سورية ويبيعون ذلك في لبنان. وهم يزرعون كثيراً في البقاع الذي تقع بلدتهم على حدوده، وحيث يشكلون حاجزاً منيعاً في وجه محاولات السلب من قبل الدروز الذين اعتادوا منذ القدم على اعتبار تلك المقاطعة الخصبة بقراها العديدة حقلاً صالحاً للسرقة والاغتصاب.

وقد تعاهدوا بنوع من التحالف مع مسيحيي دير القمر لحماية مصالح المسيحيين الذين كانوا يمقتونهم. ليس بدون خوف، لمظاهر كبريائهم ولنجاحهم المحسود ولاقامتهم حاجزاً منيعاً دون محاولاتهم (الدروز) الظلم والاستبداد.

وقد بلغ عد السكان المسيحيين الروم ٦٠٠٠ وعدد الدروز ١٥٠٠ على الاكثر وهنا كان لهم نواة اخرى لقوة مسيحية. والمذكورون لم ينسوا ابداً سلوك الدروز نحوهم عندما كانوا مسلحين بكل قوى الحكومة التركية لأنهم جردوهم من سلاحهم، واساؤوا معاملتهم وعرضوهم الى كل انواع التحقير والاهانة. فالحوادث اوجدت عداء بين الطائفتين لم يكن في الامكان محوه. وكذلك كان فرع الشهابيين المحمديين الذين كانوا الحكام الشرعيين، في نزاع دائم مع هؤلاء الدروز الذين كانوا يهضمون حقوقهم ويعرقلون سلطتهم. فاصبحت مهمتهم لذلك معارضة المسيحيين. وهكذا فإن التعديات التي كان يقدم عليها الدروز في الاماكن المجاورة، في معاقلهم القديمة في وادي التيم، من دسائس حقيرة ومشاغبات علنية جعلت

امر استتباب الامن والهدوء مستحيلاً تماماً فكان المسيحيون مجبرين على الوقوف دائماً على سلاحهم كجيش تحت الحصار.

ومتى حللنا هذه الاعتبارات الهامة موضع التفكير وجدنا أن سوء الطالع الذي احاق بالمسيحيين في الاماكن المذكورة اعلاه، عندما هاجمهم الدروز بكل قسوة وغضب للاخذ بالثأر والغلبة، اصبح مفهوماً.

فالدروز وصلوا الان الى حالة سياسية لم تترك لهم بعدها شيئاً يتمنونه. فانهم اصبحوا يمارسون جميع امتيازاتهم الاقطاعية وكل عائلة من عائلاتهم الرئيسية غدت تحكم مقاطعتها حكماً مطلقاً. والمسيحيون الذين كانوا بينهم كانوا تحت سلطتهم وقائمقامهم كان بواسطة القوى التي تحت ارادته والتي كانت كافية تماماً بجعل سلطته محترمة، مسرورا لان يرى مشايخ الدروز يمارسون عليهم سلطة اسمية مطاعة. اما الحكام الاتراك فلم يكن لهم سلطة مباشرة على الاطلاق؛ فاوامرهم كانت تنقل بواسطة القائمقام وكانت تطاع او لا تطاع وذلك حسب خلقية ومكانة الذين كانت توجه اليهم. وهكذا اصبحت المقاطعة الدرزية، في الحقيقة جمهورية مستقلة.

لم يمض وقت طويل حتى اصبحت تأثيرات هذه الحالة من التنظيم ظاهرة. فان كل سنة تمر كانت تؤكد لمشايخ الدروز زيادة قوتهم وتثبيتها وعدم مسؤوليتهم عما يعملون وقد استمروا على التمتع بالحرية وعدم المسؤولية اللذين كانا يضعان حداً لكل انقباض وضيق. ولما كانوا مكلفين بجباية الاموال الاميرية فقد خصصوها لحاجاتهم الخاصة فبنيت البيوت وشريت الارض واستثمرت الممتلكات الاميرية وحليت الخيول المطهمة وروضت، وكل ذلك سرقة من مال الدولة. ومع انهم دعوا مرارا الى الحساب فقد لجأوا دائماً الى التأجيل واخيراً الى التخلص من الموعد المضروب. ولو فرضنا ان قائمقامهم، يائساً من هذا التأخر عن تأدية المتأخرات من الضرائب التي كان وحده مسؤولاً عنها امام الحكومة، خاطر بارسال فرسانه بينهم يطالبهم بتأدية قسط واحد على الاقل، مهما كان ضئيلاً، من المتوجب عليهم، فاما انهم كانوا يمنحونهم ضيافة حرة حتى يملوا الانتظار الطويل فينصرفوا أو انهم كانوا في حالة العناد غير المحتمل يطردونهم بدون لياقة. وفي بداية الحرب الروسية عرض مشايخ الدروز خدماتهم لتجهيز قوة والذهاب الى كريميا أو الى آسيا الصغرى. وقد كانوا متحمسين في تقديم خضوعهم للسلطان وكرههم للكافر.

والحكام الاتراك قرروا تجريبهم فخصصوا ٠٠٠ ١٥٠ ليرة ذهباً لاجل حاجاتهم الخاصة. فهبط مشايخ الدروز من مساكنهم في الجبال بابهة عظيمة وجلبة يتبعهم مئات الدروز يشوحون ببيارقهم وينشدون اغانيهم الحربيّة. كل منهم ليقبض القسم المخصص به لدفع الرواتب ولشراء الحاجات. ولكن وطنيتهم انتهت عند هذا الحد. فمنذ ان قبضوا المال الى جيوبهم أخذوا يضيعون وقتهم بالتنقل في البلاد ملتمسين حججا عديدة طوال عدة اشهر، وانتهوا اخيراً بعدم تركها على الاطلاق. وقد كررت الحكومة الطلبات لاجراء حساب بالمبالغ الكبيرة التي أخذت منهم بخدعة ولكن بدون اقل نتيجة.

وفي مقاطعات الدروز اصبحت الحياة والممتلكات تدريجاً غير مصانة. لأن الدروز كانوا يسلبون ويفتكون بمن يريدون دون ادنى ملاحقة. وفي خلال عشر سنوات اقترفوا سبعمائة جريمة قتل في نطاق حكمهم ولم يتعرضوا الى محاولة واحدة من تحقيق أو تدقيق. وفي حادثة فظيعة. حادثة ذبح عائلة مسيحية بلا ادنى سبب من قبل الدروز، رفعت العرائض الى اسطنبول وورد بالنتيجة ثلاثة تحارير وزارية الى خورشيد باشا تأمره بأتخاذ التدابير السريعة لاكتشاف الجناة ومعاقبتهم ولكنه لم يوجه ضدهم تدبيراً ما، فالدروز كانوا يفاخرون بعملهم هذا. بينما كان المسيحيون التعساء يشعرون بأنهم موثوقو الايدي والارجل امام مدى جزاريهم كلما رغبوا في اشهارها.

ولا يجوز الاعتقاد بانه لم يوجد هنالك قوة تتمكن من قمع تصرفاتهم الوحشية غير المشروعة. انه لم يكن من حاجة الى توجيه قوة كبيرة لاخضاع الدروز الى طاعة تامة، او تحصيل جميع مطاليبهم منهم مهما كان نوعها. وان اقل توجيه روحي من الاتراك الى القائمقام الدرزي في كيفية القيام بواجباته، شريطة ان يعطى بشكل يجعل الدروز يشعرون انه صادر عن ارادة ورغبة حازمة وفي الامكان ملاحقته اذا اقتضى الامر بقوة وحزم، يكفي بلا ريب لقمع كل مخالفة وقحة للشرائع والعدالة وتخليص المسيحيين من ظلمهم القاسي وضغطهم.

لكنّ هذا لم يكن هدف ساسة الاتراك في لبنان. ولم يكونوا مفوضين في حكمه على طريقتهم. انهم كانوا مرغمين على الرضى عن مشاهدته ممسوخاً بالفوضى والاضطراب. وكانوا يأملون، وفي الحقيقة كانوا متأكدين من أن الازمة التي لا مفر منها يجب أن تأتي، تقف الطائفتان ثانية متقابلتين في موقف عدائي، وعندما يتمكنون ثانية من استثمار لعبتهم

الخطرة، لهذا اعطوا الدروز صلاحية غير محدودة في كل عنادهم وتعدياتهم الجائرة، انهم تمادوا الى ان تذللوا امامهم لاعتقادهم انهم عندما تأتي الساعة يجدونهم صنائع لتحقيق نواياهم الرهيبة بفرح وحماس.

ان الاعلان الحماسي للحرب الروسية كان، متميزاً بكونه تجربة لمحبة الذات التركية والتظاهر بالاعتماد على النفس. انهم كانوا يشعرون بانهم مدينون بنجاتهم وحياة قوميتهم للتدخل الشريف من قبل الدول التي كانوا يحتقرون ديانتها ويكرهون سيادتها وتفوقها. وإن الحقيقة الراهنة لحاجتهم الماسة الى مثل هذه المساعدة كان مغايراً لكبريائهم وكان امر المحافظة على اهميتهم ومكانتهم في نظر اتباعهم المحمديين تحت حكم هذه الروابط من الاعتراف بالجميل والشكر نقطة على جانب عظيم من الاهمية. وزيادة على هذا فان دولة واحدة من هذه الدول، على الاقل، قررت بان التضحية التي بذلتها باراقة الدماء الكثيرة وانفاق الاموال الطائلة من جانبها لا يجوز ان يذهب هدراً دون ان تعطى شيئاً في المقابل؛ فكانت ترمى الى الحصول على مصالح معادلة للمسيحيين المتفرقين، على الاخص في المقاطعات الشرقية من امبراطوريتهم.

كما وانه يجب الاعتراف بان الخطة، التي اتبعتها فرنسة في هذه المدة نحوهم ارهقت صبرهم كثيراً بل وزادت تمرمرهم وبغضاءهم الطائفية. وفي جميع سوريا خاصة، توصل موظفوا القنصلية الفرنسية الى الاشراف على مصالح المسيحيين لكونها من حقهم الشرعي ولكونها بقيت لعدة سنوات، في الظاهر، مهملة. فامتاز القنصل الفرنسي العام في بيروت اكثر من كل زملائه بمظهر الصلف وتصرفه الدكتاتوري ورغبته القومية في نشر النفوذ الفرنسي، بنواياه المخلصة وآماله بتحسين حالة المسيحيين ورفع مستواهم بهذا التصرف الجَريء. ونجاحه كثيراً أو قليلاً في تحصيله لهم مؤقتاً، مركزاً لائقاً، حقيقة غير مشكوك فيها. غير أن اجتهاده لم يكن عن حكمة. لقد احب القضية المسيحية «كثيراً ولكن دون رؤية».

ان شعور المسيحيين بضمان الاحترام الذاتي والتمتع بالسيادة تحت رعايته السامية والتظاهر باستخفاف كل سلطة سواها كانا مسرّتين كافيتين لو كان من الممكن دوامها، وانه من المؤكد أن فكرة عدم استقرار ودوام ذلك لم تجد، ولا مرة واحدة، الى عقل راعيهم منفذاً «فإن من يفلق الصخر لا يرهب الوقر» وان ذاك الذي ابان ان تصرفاته

حملة صليبية ضد التعصب المحمدي والشعور المحمدي، لم يكن ليقدر ولا في مرة واحدة انه كان يغذي ينابيع التعصب الذميم الخفية، التي وان تكن انذاك قد حملت بهدوء وخفيت عن الاعين فستظهر عند أول مناسبة واضحة جلية بصورة لا تقاوم ولا تقمع ولا تذلل.

لم يبق شيء لم يعمله القنصل الفرنسي العام مما يثير الحسد والحقد في الحكام الاتراك وابناء دينهم، مع التأكيد انها كانت غير مقصودة منه. فالاول (الاتراك) كانوا خائري العزم امام نفوذه الجريء في القسطنطينية، خوفاً على مراكزهم لذلك رضخوا حالاً لكل اوامره، فابواب السجون كانت تغلق وتفتح عند ارادته، والاغواث والمتسلمون كانوا يوظفون ويعزلون بموجب رغبته الملكية. والمحمديون في الشوارع والمحلات العامة كانوا مجبرين على السكينة او الوقوف عندما يحين مجيء سموه.

ان الرعايا الفرنسيين او اولادهم أو ابناء عمهم كانوا خاضعين له وحده يجلسون في ديوان الولاية جلوسهم مع نساء لهم ويعاملون موظفيه بعدم مبالاة تامة. وكان امراء العرب، من اقصى البلاد، من الدروز والنصيرية، ومشايخ المسيحيين على السواء، يدعون بلطف لحضور العيد الفرنسي حيث يتلقون ايعازات الرجل العظيم. ويلهون في ضوء شمسه ويستقون من نبع المكافآت والرواتب. كما كان يقدم احيانا بجولات في الجبال حيث يستقبل بهتافات عظيمة، فتقرع اجراس الكنائس والاديرة، وتخرج مواكب الكهنة، وتطلق العراضات الداوية.

لا عجب اذا نظر الاتراك الى هذه المظاهر الضخمة بخوف وتعجب واندهاش. أو رأوا من علاقاته واتصالاته الدائمة مع مسيحيي لبنان، ومأمورياته الفخمة الى قائمقامهم، واجتماعاته السرية مع البطريرك الماروني، مسوغا للتفكير، بملاءمة الظرف اخيراً لجعل لبنان وسيلة صالحة لادخال قوة اجنبية الى ممتلكاتهم.

اما جماعات المسلمين فقد كانوا امام مظاهر الطموح والتهجم على جانب عظيم من الانفعال فكل بريد يخرج من بيروت كان يحمل معه التحارير الى اقصى اجزاء سورياً مصورة بعبارات مؤثرة حالة التحقير والصغارة التي وصل اليها الامنون والاهانات التي كانوا معرضين لها يومياً بواسطة احط الرعاع الذين كانوا ينعمون في حماية الفرنج العصاء. فالقدس وحلب ودمشق على السواء كانت لها حكاياتها المتجاوبة عن الاذلال والاخطاء.

وفي المدينة الاخيرة ـ المدينة المقدسة والخالدة من حيث قفل محمد راجعاً لكونها اسمى من ان يوجد فيها وحيث سينزل المسيح بشخصية ليقاضي البشر وحيث المسيحية نفسها خضعت دائماً بمذلة وضعف امام صولجان الاسلام الطاهر ـ اصبح المواطنون المسيحيون امراء المتاجر يعيشون في قصور مزدانة بالرخام ومطلية بالذهب لقد تباهوا بغناهم وتفننوا بمفاخر الزينة وتمتعوا بكل انواع الانفاق والبذخ. كانوا يثيرون حسد وغيرة جيرانهم المحمديين الاقل سعادة فهؤلاء الاخر كانوا مجبرين على مشاهدة هؤلاء يرفعون الى درجة ممثلين للدول الاوروبية. والرجال الذين كانوا منذ سنين قليلة يلتقون بهم في الاسواق ويدفعونهم غير مبالين الى المجرى، كانوا يخطرون لأن امامهم في الشوارع تتقدمهم كل آلة القناصل وفخفختهم وما يزيد عنها روعة وبهاء وفي مثل هذه الحالة كانت تقف المحمدية في كل اقسام سوريا موقف الدفاع. فتألفت الجمعيات السرية في كل النواحي لوضع حد لهذا التأخر العام بكل وسيلة، واية وسيلة. فاذا كان مركز البلاد من اسطنبول حيث هناك سلطان ضعيف واهي العزيمة يقترف هذه الجرائم، فيذعن للفرنج بالقضاء على اسمى امتيازات الرسالة الدينية ويستسلم بدون مقاومة الى هدم ابرز واعز الحقوق المعتبرة واسمى مفاخر الثواب لذلك الدين الحنيف الذي ثبته السيف والزمن فلتؤخذ روحه ولتلق البردة النبوية على اكتاف خليفة افضل، واذا، فشل هذا، فليلجأ المؤمنون الحقيقيون الى سلاحهم الحقيقي منتظرين الساعة ومستعدين لظهور العلامة.

«استيقظ انهض أو ابق مهشماً في الحضيض».

هذه كانت بلا ريب عاطفة المحمديين في جميع الامبراطورية العثمانية في سنة ١٠٥٧، كما انها هي هي حتى الساعة، عاطفية ليست مهاجمة أو محركة الا بواسطة الاتراك انفسهم.

وفي هذا الوقت، وعلى اثر موت القائمقام المسيحي السابق وضعوا مكانه قائمقاما في لبنان العضو المجرب المتمرن على الدسائس والمفاسد الامير بشير ابو اللمع. ها قد اصبحت الكرة على اقدامهم ولم يبق امامهم إلا التصبر والدراية لتحقيق جميع تدابيرهم وخططهم. ومهما كانت واجبات هذا القائمقام نحو رؤسائه او علاقته بوالي بيروت فقد اشعر حالاً بان هنالك عامل اخر يتطلب اجتهاده وخضوعه. كما وان القنصل الفرنسي النشيط الذي لا يتعب طلب أيضاً كما طلب الاتراك حكم لبنان المباشر غير المقسم،

وهكذا وجد القائمقام نفسه في حيرة. ولكنه وجد حالاً بان صعوبته ليست مستحيلاً، ولا تستطيع ان تقول عنه «انت لا تستطيع ان تخدم سيدين» لانه خدم الاثنين هذا وذاك بلباقة تامة ـ فاعمال الاثنين كانت تتطلب عربدة وفوضى لم تمكث تأثيرات الضغط الفرنسي على القائمقام طويلاً حتى أصبحت بارزة. فالاخير (الامير) وهو درزي المولد كما كانت كل عائلته كان مقيداً بوظيفة اسمية في الدين المسيحي، وفي الحقيقة فقد كان عاطفة ومبدأ قليل الاهتمام باوامر الكهنوت الماروني الكنسية، فالبطريرك الماروني لم يكن معبوده، ومع هذا اجبر على الخضوع والعبادة، فقد قيد نفسه بعهد بحضور القنصل الفرنسي العام بان يطيع اقل اشارة منه. وهكذا خلقت ولاية ثلاثية مقيدة بمبدأين ـ الخضوع من قبل السلطة المدنية للسلطة الدينية وخضوع الاثنين لفرنسا. وكل من خالف أو خان في تنفيذ هذا النظام يسحق بدون شفقة.

والبطريرك الماروني، في هذه المدة، وقد كان جديداً في مركزه، كان مشهوراً بامرين: مقته للارستقراطية الاقطاعية وتعصبه الاعمى لمعتقداته الدينية. لاجيال خلت كان البطاركة المارونيون ينتقون من العائلات المقدمة، تقريبا بدون تغيير، في لبنان. غير ان هذا كان فلاحاً ومن اتباع آل خازن العائلة العريقة التي كان مدينا لها لكونها علمته وأهّلته للترقي في حياته الكهنوتية وفي بلوغه المركز البطريركي. بيد أن ذلك العرفان للجميل الذي كان من الممكن ان تنتجه كل هذه المساعدات تلاشى في مبدأ التمسك بالقسوة الدينية وروح الكراهية الموروثة لأبناء الطبقة النبيلة تلك، التي في النظام الاقطاعي على الاخص يجب ان ترسخ في صدر ابن الشعب.

كان القائمقام منذ زمن يهاجم حقوق الارستقراطية المارونية ويهمل امتيازاتهم ويقوم باستعمال سلطته المباشرة في امور كانت منذ اجيال مختصة بهم وحدهم. وكان المسيحيون الروم قد اصبحوا ثانية عرضة لاضطهاد كنسي وفي احدى المناسبات قبل احد المسيحيين الروم الاعتقاد الماروني في قرية كبيرة مأهولة بمجموع من تلك الطائفة (الروم) فوضعت الكنيسة اذ ذاك تحت حكم الطقوس الدينية المارونية، وجلد الكاهن العامل بوحشية على المذبح. ونزل القائمقام بجنوده على العصاة ليجبرهم على الخضوع واخيراً حولت الى اسطبل وكذلك كانت مطالب الروم في المحاكم المدنية غالباً مهملة وحقوقهم في حالة نزاع مع المارونيين مهضومة بدون شفقة. إن طالبوا طردوا بقسوة أو احتجزوا وكذلك اهينوا وجلدوا.

كانت نتيجة هذه الحوادث المتكررة هيجان عام واستياء في جميع المقاطعات المارونية في لبنان. تأتي الاحزاب المظلومة الى بيروت لترفع امرها الى خورشيد باشا فتصدم احياناً في الطريق وتهاجم من قبل اتباع القائمقام وكانوا اذا اعتقلوا بعضهم اخذونهم الى القرى في الجبل فيكبلونهم بالقيود. كذلك كان الوالي يستقبلهم ببرودة بل بسخرية وهزء. كما كانت التماساتهم تحمل محمل العصيان. فكل تصريح باستيائهم العام لاجراء ما من قبل السلطة كان يعتبر ثورياً وهكذا شعر الملتمسون اخيراً بتلاشي امالهم بالرحمة والانصاف. لقد ارسلوا وفوداً الى اسطنبول بتأثير اعظم، واللورد سترتفورد ده ردكليف Lord Stratford de Redcliffe، تمكن بتلك القوة النزيهة التي كانت واضحة في كل علاقته مع الباب العالي، أن يجبره على ارسال بعثة سريعة الى سوريا لاجل التحقيق.

ولكنها كجميع البعثات التركية، خصوصاً التي ترسل بواسطة الاوروبيين، برهنت على فشل مقصود. فالمندوب علق بين ايدي الحكام القانونيين ورشي بمبلغ عظيم فوقع تقريراً اصدره هؤلاء الحكام انفسهم، بأن القائمقام غير مخطىء وان المعترضين ثوريين وقحين. وبعد غياب عدة اشهر رجع الى اسطنبول ولم يكن هنالك حادثة اكثر فظاعة وقباحة ودساً وظلما من هذه القضية المعروضة. ولكن الاتراك لن يلجأوا الى نزع اداتهم. فقائمقام شريف يكون عثرة في طريقهم. انهم كانوا يريدون ان يظهروا للملأ بأن ليس هنالك حكومة تستطيع ان تحكم لبنان سوى حكومتهم وكلما رأوا لبنان يندمج في الفوضى والارتباك، شعروا بأن امنيتهم اصبحت قريبة المنال فالدول الاوروبية، كما اعتقدوا، ستنزعج من هذه المناظر المهيجة والنزاع المدني الدموي، وترضخ للامر.

وفي الوقت نفسه حققت الولاية المثلثة انتدابها. فمشايخ آل خازن حكام المقاطعة الاهلة بالسكان كسروان اقترفت المخالفة غير المغفورة، إذ لجأت الى الحكومة الانكليزية لرفع مظالمهم للباب العالي، وهذا الخروج المغضب، من قبل هؤلاء، عن مبدأ الخضوع الماروني لفرنسا لم يكن فقط غير مغفور، بل كان عليهم ان يمنعوا تكراره وانتشاره، هذا التدبير القبيح، يجب ان يعاقب عليه بشكل علني. وفي الحال ثار عليهم فلاحوهم بهجوم مسلح. فالقائمقام اوعز اليهم علناً أن يذبحوا مشايخهم ويستولوا على املاكهم وهذا الايعاز نفذ بدقة فانتشرت الفرق المسلحة في كل الجهات تنزل بالمشايخ الموت المحتم ولم يبق لهم امل أن ينجوا بارواحهم. ففروا بصعوبة متناهية ولكن لم يسلموا من

الأذية. فلجأ البعض منهم الى قصر البطريرك الماروني ولكن المجموع تبعهم واحاط بالبناء ينادي بالصوت العالي طالباً تسليمهم اياهم. وقد اظهر البطريرك العجز التام عن ايقاف هذه الحركة واضطر للمفاوضة مع المتمردين واخيراً اعطى المشايخ المساكين حماية الى بيروت.

وصلت الحركة الاخيرة الى تأليف ثورة منظمة قامت بجميع انواع الهيجان الوحشي. فمنازل المشايخ المطرودين احرقت الى الأرض. وكان كل من يوجد سالماً من المشايخ يقبض عليه حالاً ووضعت في عنقه حبل وسحب من هنا الى هناك في شكل مهين واخيراً عذب الى ان مات وكذلك ذبحت زوجته وابنته. وصودرت جميع ممتلكاتهم وقطعت احراشهم ووزعت للحاجات العامة.

وفي خلال سنتي ١٨٥٨ ـ ١٨٥٩ استمر هذا النسق من السرقة والنهب بلا خوف. فانتخب الفلاحون دكتاتوراً كانوا يخضعون له خضوعاً أعمى وهو بدوره عين منهم قادة لتنفيذ اوامره ولجنة تشريعية لتنظيم التدابير القضائية والالمام بمخالفات العصيان. وقد صرحوا، عندما شجعوا بعدم الملاحقة بانهم مستقلون عن كل سلطة عليا، فانقلبوا ضد القائمقام واخبروه انهم لا يهتمون له ولا لسيده التركي. وفي الواقع انه عندما حاول الوالي معاقبتهم بارساله قائداً على رأسه شرذمة من رجاله، صدوه ومنعوه من التقدم خطوة واحدة الى جبالهم واجبروه على التراجع وهكذا احبطوا كل مساعيه.

اما الخازنيون فلم يدروا من أي مرجع سيأتيهم الخلاص. فالاتراك استمروا على ما كانوا عليه من اللامبالاة. والقنصل الفرنسي العام والبطريرك كانا عدويها وكل امالهم بقيت معلقة على العطف الكريم والمعارضة القوية من الحكومة الانكليزية التي قدموا لها خدماتهم في سنة ١٨٤٠ عندما ظهر الاسطول الانكليزي على الشاطىء ودعاهم لمعاضدته ضد المصريين، وقد قدموا نفس التعهدات التي اعطيت لهم من ان امتيازاتهم تصان وان حقوقهم المكتسبة تؤيد وتقاليدهم القديمة تحترم، وان الحكومة الانكليزية، كما قدموا بحق، مرتبطة معهم بجميع روابط العدالة والشرف لتلح على الباب العالي بانه من الضروري اتخاذ التدابير لمعاقبة الذين سلبوهم وذبحوهم، وتعمل على اعادتهم الى بيوتهم وممتلكاتهم وقد حولت هذه الالتماسات المستعجلة الى السفارة الانكليزية في اسطنبول ولكن كل ذلك كان بلا جدوى فان عقل السيد الذي كان بامكانه، والذي كان يعمل ليصلح وينظم كان

قد ذهب فسفير انكلتره الجديد لا يعبأ بهذه الامور وهو لو فعل لما كانت ارادته قوية ولما كان صوته كافيا فهو من المتحمسين لتأييد نظرية «عدم التدخل» القاتلة لنفوذ الانكليز ولتثبيت المصالح الانكليزية في الامبراطورية العثمانية والمميتة ايضاً لصالح تلك الامبراطورية نفسها فالوزراء الاتراك كانوا متروكين ليتبعوا خططهم العمياء ويثابروا بدون دليل على تتبع هدفهم الاعمى المنشود والاتراك في تعصبهم الذاتي نظروا الى تكردس الحوادث التي كانت تهيء لهم، في برهة قليلة، رمي لبنان بين ايديهم. فالمسيحيون توصلوا الى حالة جعلتهم يشعرون ويأملون بان يسود الاعتدال والحكمة. فقد كانوا يعرفون انهم كلما ضاعفوا عربدتهم وهياجهم ازدادت مطامعهم. لقد تابعوا هذا التهيج لتلك الغاية املين ان يقودهم الى الخراب لقد كان بامكانهم، في اقصر وقت، تأمين النظام ولكن هذه لم تكن رغبتهم، فاعادة المسيحيين الى الطاعة بينما يتمتع الدروز باستقلال تام لم يكن هدفهم. لقد كانوا يتساءلون أي الطائفتين يجب أن يمقتوا: اتلك لغطرسة اقطاعيتها أمن لك لحقدها وكرهها. ولكن بتشويش الاثنتين وجعل الواحدة اداة لسحق الاخرى ولو بتشويه كل حسنات الشعور الانساني، كان يجب العمل فالاثنتان يجب ان تصبحا فريستيهم. وعندئذ يصبحون حتماً اسياد الموقف. فالوقت دنا ـ ذلك الوقت الذي ظهر صالحاً لاتمام غاياتهم.

لقد منح مشايخ الدروز عطفا خاصا. فكانوا كلما نزلوا من مساكنهم الجبلية يستقبلون بغاية التملق. فقد عين بعضهم في الامن العام واعطي الآخر مأموريات رابحة. فسعيد بك جنبلاط زعيمهم الكثير النفوذ اعطي بموجب فرمان من اسطنبول رتبة ياور امبراطوري مع وسام. ووبخ القلائل الذين كانوا يترددون على بعض القنصليات لمسايرتهم وخضوعهم لدول اجنبية. فاين يجدون حماية سمحة مفيدة كحماية سلطانهم الخاص الذي اصبح الان سيد سياسته الخاصة متحرراً تماماً من كل تدخل اجنبي غير محاسب على عمل من اعماله. والدروز عندما وجدوا انهم محترمون وان مهمتهم في اتلاف الممتلكات العامة مغضوض عنها الطرف ومحاولاتهم المتعددة للتهرب من كل تبعة ناجحة وعبثهم بالممتلكات والارواح مسامح تعاظم غرورهم بتقدير اهميتهم بينما كانوا في الوقت نفسه يتذللون في استعطاف اسيادهم المتسامحين وهكذا فلم يبق امام الاتراك بعد ان وضعوا خططهم الا ان ينتظروا سير الحوادث بصبر.

الفصل الخامس

العراك آب ١٨٥٩ ـ خورشيد باشا ـ اعتداء الدروز ايار ١٨٦٠ ـ سقوط دير القمر ـ مذبحة جزين ـ ٣ حزيران ذبح الذكور في حاصبيا وفي ٤ منه في راشيا ـ الست نايفة (شقيقة سعيد بك جنبلاط) تشرف على المذبحة.

الفصل الخامس

في الثلاثين من شهر آب سنة ١٨٥٩ حصل مشاجرة ذات شأن بين الدروز والمارونيين في قرية بيت مري التي تقع على بعد ثلاث ساعات من بيروت. والسبب الحقيقي كان مشاجرة بين درزي وغلام مسيحي، فجاء والد هذا الأخير مع ثلاثة مارونيين آخرين إلى والد الغلام الدرزي وألحوا عليه مهددين بأن يعاقب ولده. فأخبر الرجل الدرزي أقرباءه الذين بلغ من تهيجهم أن أرسلوا يستنجدون بالدروز في القرى المجاروة وفي اليوم التالي اجتمعوا معاً وطلبوا منه أن يعتذر عن الاهانة، كان المارونيون على وشك إجابة الطلب عندما أطلق بعض الدروز بنادقهم تفاخراً فاعتبر الأول ذلك تحدياً فأسرعوا إلى السلاح وثوروا على الدروز ناراً حامية أتبعوها بهجوم عنيف، سيق الدروز على أثره إلى خارج القرية بخسائر كبيرة وفي اليوم التالي، يوم أحد، أعاد الدروز الكرّة وكان صدام شديد بين الطائفتين دام طوال النهار دحر المسيحيون بدورهم فيه، غير أن خسارة الدروز على الإجمال كانت ثمانية وعشرين قتيلاً زيادة عن المسيحيين، الذين في هذه المناسبة أظهروا شجاعة غير اعتيادية.

أما الحكّام الأتراك فقد أخذهم العجب. فأرسلوا حالاً أحد الموظفين إلى القرية وهذا جمع المتخاصمين الأساسيين من الجانبين وأجرى صلحاً ظاهراً. ولكن الدروز، مع كل ذلك، في نواحي الجبل الأخرى، اعتبروا هذه المشاجرة علامة لحرب أهلية وتحت تأثير انكسارهم غير المنتظر وخسارتهم العظيمة بدأوا حالاً بقيادة أحد شيوخهم باحراق بعض قرى المسيحيين. وعندما بلغ خبر الاضطراب المخيف الذي قادت إليه الظروف، خورشيد باشا، ركب إلى مركز متوسط على طريق دمشق يتبعه بعض الجنود ليمنع امتداد توسع الشر. وهناك جمع زعماء الحزبين بوجوده وحتم عليهم أن يتفقوا على حفظ السلام. وهكذا استتب النظام حالاً غير أن الدروز الذين أقدموا على إجراء هذه التعديات لم

يعاقبوا ولم يوقفوا. أما مقدرة الأتراك وقوتهم على جعل الجبليين يلجأون إلى إطاعة أوامرهم فقد ظهرت هنا بجلاء دون أن يكون هنالك حاجة إلى المدفعية والفرسان أو آلاف الجيوش لتفريق المتقاتلين. فالحرب الأهلية في هذه الآونة لم تناسب غايتهم لقد رغبوا في أن تقف المنازعات ـ والمنازعات وقفت.

وكل من علم أخلاق الطائفتين المتعاديتين والحقد الذي كان سبب عدائهما يرى أن الحرب الأهلية بالرغم من تمديد أجلها مؤقتاً كانت منذ ذلك الحين رهينة الوقت. فالمارونيون كانوا متحمسين ومشجعين بانتصارهم الأول: فإذا كان هؤلاء من بيت مري، الذين لم يشتهروا أبداً بشجاعتهم، أوقعوا مثل هذه الخسارة في الدروز، فماذا الذي ننتظره من مسيحيي دير القمر وزحلة وجزين إذا أشهروا سيوفهم؟ أما أن يتسامح الدروز تماماً في قبوله أو ينسوا انكسارهم المريع، أو يتخلوا عن الأخذ بالثأر، فذلك ضرب من المستحيل، وفي الواقع فقد بدأ الجانبان من ذلك الحين يستعدان إلى معركة مميتة لا مفر منها، ويعدان العدة لها.

إن النداء إلى حمل السلاح الذي قام به الدروز من أجل هياج شخصي، والسرعة التي اتحدوا بها من أقصى الأماكن كانت تدل بوضوح على نوايا سبق الاتفاق عليها أوقعت المجموع المسيحي في ذعر عام. فلخمسة عشر سنة خلت كان الدروز يضغطون على المسيحيين القاطنين بينهم بكل وسيلة ممكنة. وكان المسيحي يشك في حجة اعتبار حياته ملكاً له ولذا انتشر في لبنان عموماً شعور بالشفقة على مكانتهم المتأخرة التاعسة ان آل جنبلاط وآل عماد وآل أبو نكد كانوا مشهورين ببربريتهم واستبدادهم الجائر. غير أن معاقل المسيحيين كانت حاجزاً منيعاً لوقف أعمالهم غير المشروعة والتي أشير إليها؛ ولهذا السبب فقد كانوا يتربصون الفرصة للهجوم والتخريب والقضاء عليهم وكانت مجاهرتهم برغبة في حفظ السلام أحسن ستار لنواياهم الخفية اللامبدأية. إنهم كانوا يلقبون المسيحيين بالمفسدين العديمي الاكتراث. ويرددون بحذق ودهاء، مقدمين بوضوح العبارات القاسية التي استعملوها ضد أنفسهم في السابق.

وكما كان المحمديون في المدن يخلقون الأعذار دائماً وأبداً لمهاجمة المسيحيين بتقديم التقارير في أنهم كانوا على وشك المهاجمة منهم، فهكذا أصبح الدروز أكثر فأكثر متشددين في شكاويهم من تعديات المسيحيين بنسبة اقتراب الوقت لسحق واستئصال

معاقل القوة المسيحية القليلة التي كانت تقف حاجزاً في وجوههم في المكان الذي كانوا يدعونه بكبرياء ورفعة «الجبال الدرزية».

والمسيحيون عند مشاهدتهم بوضوح كل هذه التدابير العدائية وملاحظتهم بخوف سري قاتل الصداقة والاتفاق الحبي الذي كان موجوداً بين الدروز والحكّام الأتراك بدأوا بحكم الطبيعة في أخذ التدابير اللازمة للمدافعة عن نفوسهم. فالمارونيون الأغنياء قاموا باكتتاب لأجل مشترى الأسلحة والذخيرة التي كانوا يفرقونها على أبناء دينهم في الجبال. وانتشرت رغبة عامة للقضاء على كل خلاف بينهم وبين المسيحيين الروم، ليوجدوا اتحاداً تاماً ومعاونة بين كل أجزاء الجسم المسيحي. والاكليروس الماروني سخّر كل قوة نفوذه ليحقق هذا الاتفاق المرغوب فيه. أما المسيحيون فكانوا إلى ذلك الحين ضعفاء لتحاسدهم المتبادل، في وقت كالوقت الحاضر. عندما كان بلا ريب هنالك حملة مدبرة ضد إيمانهم المشترك. بادرة سيئة مقدرة وغير خفية، لترمي كل منهم في عبودية مهينة بإلقاء كل مقت الدروز الشرس عليهم بلا مبالاة فالحاجة إلى عمل مشترك، كانت غير مستغنى عنها وعلى كل فئة أن تكون على استعداد عندما تأتي ساعة التجربة، هذه كانت لغة المارونيين.

والأتراك، من جهتهم، أولئك الذين كانوا يعرفون بوجود مثل هذا الشعور، ويرون الاستعدادات العظيمة التي كانت ترافقه اجتهدوا ليضاعفوا في تقريب العلاقات التي كانت موجودة بينهم وبين الدروز فعدد كبير من المشايخ الدروز أجروا التدبير غير الاعتيادي ليعرفوا شتاء سنة ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠ في بيروت، حيث كانت اجتماعاتهم مع الحكام الأتراك طويلة ومتعددة وعلى الغالب يومية. أما الغاية منها فلم يكن فيها أدنى شك ومع أن كل التفاصيل التي جرى البحث فيها بقيت غير معروفة فالحقيقة العظمى التي شاعت كانت أن الدروز دعوا ليهيئوا أنفسهم إلى خدمة هامة جليلة وأنهم أجابوا النداء بكل معاني الخضوع للسلطان غير أنهم قدموا بملء الحرية ملاحظتهم بأن مثل هذه المسؤوليات لا يمكن أن تؤخذ على العاتق أو يُقبل باجراء مثل هذه الخدمات إلا بموافقة صريحة وتعليمات واضحة محدودة من اسطنبول. وفي أوائل ربيع سنة ١٨٦٠ رجعوا إلى بيوتهم.

وفي شهر نيسان استلم خورشيد باشا مراسلات من اسطنبول ظهر عليه على أثرها أنها

أنقذته من حيرة مزعجة وأعربت لهجته عن انشراح وتثبت. وحتى أنه أشيع في السراي وصول الفرمان الذي سيعيد العصاة إلى إدراكهم. وعلى غرار هذا عقد سعيد بك جنبلاط ديواناً للدروز في المختارة، وأصبحت مراسلاته غير متقطعة. ثم أخذ الوجهاء من أتباعه يتوافدون إليه من جميع النواحي. وبعد ثلاثة أسابيع أخر ظهر نشاط عام في جميع المقاطعات الدرزية في لبنان، فالمسيحيون الموجودون وأحياناً جماعات منهم كانوا يهاجمون ويذبحون من قبل الدروز في الطرقات المنقطعة التي كانت في الغالب مرابطة من كل جهة، وهكذا وقد باتوا محاصرين بكل أنواع الخوف والرعب أخذت عائلات منهم بكاملها تترك قراها وتطلب ملجأ يحميها في أحد المراكز الرئيسية مثل زحلة ودير القمر. أما بيوت الهاربين فقد كانت في مناسبات كثيرة تحرق إلى الأرض وكانوا هم في الغالب ملاحقين من قبل الدروز الذين على أقل تقدير كانوا يسرقونهم ويجرحونهم ويجردونهم من سلاحهم. ولإثارة إهانة أعمق تأثيراً وعلى الأكثر بقصد خلق هياج للثأر الغاضب للمشاعر الدينية المسيحية دخل بعض الدروز في اليوم الرابع من شهر نوار إلى الدير الماروني في عميق قرب دير القمر وذبحوا رئيسه في فراشه.

أما في قرية حاصبيا فالدروز الذين كانوا تحت رئاسة الست نايفة، شقيقة سعيد بك جنبلاط والتي تلقت منه الأوامر، بدأوا ينقلون بيوتهم وكل أثاثهم إلى أماكن أخرى، وهذا كان قبل حصول الاصطدام الفعلي بين الدروز والمسيحيين بثلاثة أسابيع. وقد تساءل المسيحيون بغير جدوى عن سبب هذه الحركات مظهرين بشوق رغبتهم في البقاء بسلام حتى أنهم أرسلوا قادتهم إلى عقلاء الدروز يلتمسون منهم استعمال سلطتهم لوقف هذه القطيعة المتزايدة وقد قابلوهم بأعذار منمقة وتأكيدات بأن لا لزوم لخوفهم مع اسباب اخرى معادلة في اقناعها. أنهم تمادوا اخيراً في الانة قلوب العقال بهدايا ثمينة من الكتان والاقمشة خلاف التقدمات الاعتيادية من رز وقهوة وسكر وخلاف ذلك. وفي الحقيقة فقد كانوا مستعدين ليضحوا بكل شيء في سبيل ايقاف الحرب الاهلية اذا كان ذلك ممكناً. فعقد على الاثر صلح مؤقت غير أن استعدادات الدروز استمرت بنشاط متزايد. أما المسيحيون في القرى المختلطة فانهم عندما رأوا أنفسهم هكذا مهدّدين من كل الجهات شعروا بأن ساعة التجربة حانت. فقاموا ببعض انتقامات من جهتهم. ولكن لم يكن ذلك شيء يذكر بجانب المهاجمات الشرسة التي كانت تنصب عليهم. فبعض الدروز

الذين كانوا هابطين إلى ساحل بيروت استوقفوا وجردوا من سلاحهم. والمسيحيون في الجرد تحت حكم مشايخ آل عماد متخوفين من تزايد القوى التي تتجمع في المختارة في جوارهم القريب تركوا قراهم جملة في ٢١ نوار وهربوا إلى جهة البقاع عازمين على الوصول إلى زحلة، ولكنهم تبعوا بشراسة وأطلقت عليهم النار.

والان حين لم يبق من شك في نية الدروز العدائية خلع مسيحيو لبنان ثوب المذلة. وفي ٢٧ نوار قدم من رجال زحلة ٣٠٠٠ من الأقوياء ليهاجموا قرية عين داره فنازلهم ٦٠٠ درزي بقيادة أحد مشايخهم على طريق دمشق وعندها بدأت أول مناوشة قانونية بين الطائفتين. وقد دامت الموقعة كل النهار وانتهت بالمضايقة الكلية للمسيحيين الذين تراجعوا باضطراب عظيم. أما الدروز فقد أتموا انتصارهم بسرعة فانتشروا في المقاطعة المجاورة، المتن، حيث كانوا أيضاً ناجحين فأحرقوا بعض قرى المسيحيين. وخلال كل الوقت الباقي من الحرب الأهلية التي دامت شهراً على التقريب كانت هذه المقاطعة مسرحاً دائماً للمصادمات العدائية بين الفئتين المتعاديتين بنجاح متبادل حتى أصبحت كل قراها التي تبلغ ستين قرية خراباً.

إن تأخر المسيحيين في التنظيم الحربي عن الدروز ظهر جلياً في المناوشة الأولى. فالأول (المسيحيون) تقدموا بدون أقل أمر وكانوا يتفرقون يميناً وشمالاً، فقد كان كل واحد يسير حسب رغباته. وفي الموقعة قرب عين داره كانوا بلا ريب يطلقون النار على بعضهم بعضاً. وبينما كانوا منشغلين هكذا، أفاقوا ليجدوا أنفسهم متضعضعين ومحاطين تقريباً بالعدو. أما الدروز، فعلى خلاف ذلك، كانوا يتقدمون بهدوء إلى نقط معينة تحت قيادة زعمائهم الذين كانوا يؤدون لهم طاعة عمياء، فالمراكز المهدّدة كانت تراقب تماماً وإذا هوجمت فانها كانت تعزز بالقوة بسرعة مدهشة.

وفي هذا يكمن سر السيادة الدرزية على المسيحيين في الميدان. وكذلك فان تنظيماتهم وطاعتهم للنظام كانت أحسن. فالزعماء الدروز أوفر جرأة من زعماء المسيحيين. ولكن العامة في الطائفتين، في هذا المعنى، متعادلون ولو أنه كان للمسيحيين قادة بارعون ونفخت فيهم روح الطاعة، لما كان للدروز ما يفاخرون به. فهؤلاء أصبح عندهم ادعاء وهمي بالجرأة والشجاعة الخارقتين. زاد في إضعاف فخفخته العجز الحربي في منازعيهم.

وقبل الانفجار العام بوقت طويل ركز خورشيد باشا معسكراً من الجيوش التركية،

بنفسه، وراء حرج الصنوبر الذي يقع تماماً قرب بيروت ويشرف على السهول الملاصقة. وهناك استقر كقائد ينتظر ببرودة التقارير اليومية. فلم تجر الآن أية محاولة كالسابق لتفريق المتقاتلين. وفي ٢٨ نوار أرسل المارونيون الثائرون في كسروان نجدة لأبناء دينهم المارونيين بقصد حمايتهم في قريتي بعبدا والحدث مقر الأمراء الشهابيين على بعد ساعة من بيروت. وقد مروا على مجال الرصاص من أمام المعسكر دون أقل مضايقة. ومع ذلك ففي ٢٩ منه أرسل الوالي رسلاً إلى الأمير يدعوه بواسطتهم إلى ارجاع النجدة التي وصلت إليه مؤكداً له بشكل رسمي حمايته من كل هجوم من قبل الدروز، حماية كان قادراً عليها بكونه مجاوراً لهم. وهكذا فقد نفذت أوامره حالاً، وانسحبت النجدة وتبعها أكثر السكان الذكور الذين كانت ثقتهم بمثل هذه التأكيدات قليلة، وتخوفاتهم التي تحققت كلها في محلها.

وفي صباح ٣٠ نوار، هبط الدروز الذين كان بينهم وبين الأتراك تفاهم سابق والذين كانوا يعملون بإشارتهم من مرتفعاتهم حالاً إلى القرى المذكورة والتي كانت خالية الآن وبدأوا بمذبحة هائلة. ولكونهم صدموا بمقاومة خفيفة أو لم يصطدموا بشيء فان غزوتهم انتهت بسرعة ففي أقل من ثلاث ساعات كانت القرى تلتهب والرجال والنساء والأولاد من المسيحيين يهربون بأقصى ما يكون من الذعر. وكان قد وضع سابقاً في هذا المركز مائة جندي ليكونوا عوناً للدروز في حالة فشل ما وهؤلاء اشتركوا الآن بملاحقة الهاربين.

واشترك أيضاً الخيّالة الأتراك غير النظاميين في الملاحقة الشديدة فكانوا يمزقون كل مسيحي يقبضون عليه ويسلبون ويتعدون على النساء اللواتي تركهن الدروز دون أذية ما. كما وأن الأتراك بدأوا بأعمال تخريب قبل وصول الدروز بكثير. والأخر كانوا يدفعون أنفسهم إلى مهاجمة بيروت ولكن ثلاث طلقات مدفعية من معسكر الوالي أعلنت لهم أن العمل المطلوب منهم أنهي. وهكذا نزل الزعماء الدروز في مخيم الوالي حيث استقبلوا بتهاني حارة.

إن خسارة المسيحيين بالأرواح لم تكن كبيرة ولكن الأملاك المتلوفة كانت كميتها واهية فمحصول الحرير، الذي يتألف من آلاف أقات الشرانق أحرق أو نقل. والأيام التي تلت صرفها الدروز بنقل المنهوبات. فالبغال والحمير وحتى الثيران استخدمت لأجل

هذه الغاية، أمام برودة الاجراءات القانونية. وفي نفس الليلة مئات من المارونيين مع عائلاتهم هاربين من جبال الدروز وآتين إلى بيروت عن طريق البحر، طلباً للنجاة كانوا مفاجئين من الدروز والأتراك وممزقين تمزيقاً. فالأخر لم يتركوا ولداً ولا امرأة، وامتلأت الآن الجنائن في بيروت بجماعات الهاربين التعساء مضطجعين تحت الأشجار في كل الجهات. بعضهم تسيل دماؤهم وبعضهم عراة وكلهم في مراتب البؤس. هنا بدأت عاطفة الشفقة عند السكان الأوروبيين تعمل باجتهاد كما وأن بعض المحمديين المحترمين تداركوا أيضاً أمر هؤلاء التعساء المساكين.

وعندما رأى القناصل الأوروبيين **العامون** الحالة التي غرق فيها لبنان من أهوال الحرب الأهلية **ولخوفهم** العادل من تصرف خورشيد باشا، ساروا إلى مخيمه مجتمعين في أول حزيران وقدّموا له من الاعتبارات ما افتكروا أنه أكثر مناسبة لإيقاظه للعمل بما يقضيه واجبه. أما هو فأظهر رغبته العظمى في وقف المناوشات. وشكا بشدة تلك التي دعاها الجمعية، المؤلفة في بيروت، التي تشتري وتوزع السلاح على المسيحيين بأنها سبب هذا الحرب، وقد توعد بإلقاء القبض على أعضائها وانتهى بأن طلب من القناصل ليعملوا كل ما في وسعهم ليمنعوا المسيحيين المارونيين من إرسال مساعدة لذويهم في القرى مصرّحاً بأنه هو نفسه سيصدر الأوامر إلى الدروز لوقف الحرب من ناحيتهم.

وقد كان القناصل على استعداد تام ليتقدموا إلى العمل المتبادل، الذي، لو أنه عمل به من قبل الجانبين، لكان ضمن حالاً استتباب الأمن، فوعدوا بأن يستعملوا أقصى نفوذهم في الوجه الذي أراده الوالي. والأخير ربح بدهاء وسوء غاية نقطة حيوية. فباستعماله المحتلين الأوروبيين أداة بين يديه أبطل الاتفاق العام والتقدم من قبل المجموع المسيحي الذي كان استطاع حتى بعد ذلك أن يتحد ويقوم بمقاومة عنيفة. بينما كان كثير الانتباه، مع ذلك، حتى لا يرسل أوامر من هذا النوع للدروز الذين تابعوا بدون انقطاع منهجهم الدموي الظامىء.

كان سعيد بك جنبلاط في هذا الوقت قد استلم قيادة جميع الدروز الذين كانوا نوعاً ما تحت حكمه في سفوح الجبل، كان الدروز على العموم على تقدير خاطىء مبالغ فيه للقوة التي يمكن للمسيحيين أن يوجهوها عليهم في الأزمة الحاضرة وكانوا لذلك متخوفين كثيراً على مراكزهم الخاصة. إنهم كانوا يعرفون أن المسيحيين المقيمين بينهم

كانوا في كل معنى مساوين لهم بالشجاعة. لقد نظروا المصادر التي كانت منذ أشهر تنفق بتبذير لتزويدهم بالسلاح والذخيرة. لقد عرفوا الجهود غير المتوقفة التي كان الاكليروس الماروني والقادة المارونيون منذ مدة يحاولونها لإجراء اتفاق ودّي ومحبة أخوية بين المسيحيين من كل الطوائف. جهوداً كانوا يعتقدون أنها ستكون نوعاً ما ناجحة ولهذا فقد كانوا يعتقدون أنه ليس في المعقول أنهم وهم لا يتجاوزون ١٢,٠٠٠ في عددهم يتمكنون من منازلة ٥٠,٠٠٠ محارب مسيحي يهجمون عليهم من كل الجهات مزودين بقوة اتحاد ومعنوية كانت غريبة عنهم في الحوادث السابقة.

والدروز شعروا عند ذلك بأن لديهم قوة واحدة كامنة، إذا هم استعملوها بحذاقة فانها ستعوّض الفرق بالعدد ـ الخداع وقد استعملوها بحزم ودهاء إلى النهاية. وزيادة فقد كانوا يعرفون أن الأتراك هم سندتهم وأنهم يعاونونهم جيداً عند الحاجة. ولكي يقوي سعيد بك ساعده دعا إليه دروز حوران من مسيرة أربعة أيام إلى لبنان. بكتابه إلى اسماعيل الأطرش زعيمهم العظيم مبيناً له بعبارات مؤثرة المصائب الخطيرة التي استولت على دروزه الأمناء. فمساكنهم قد أتلفتها النار وقضها السيف، ونساؤهم استبيحت وأولادهم شردت من قبل المسيحيين الشرسين، فباسم الله تعالى ولأجل ديانتهم العامة ليتقدم حالاً إلى إنقاذ الدروز الذين سيقضى عليهم كشعب. وهذا الكتاب الشهير أحرق عن زواياه الأربعة ليظهر الخطر العظيم ـ علامة اليأس القاتل.

واسماعيل الأطرش ودروزه عندما بلغهم هذا النداء المزعج هبّوا كالنمور من مكامنهم وتقلدوا سيوفهم وأقسموا بأن يغسلوا مخالبهم في دماء أعدائهم الظالمين العتاة.

كان اهتمام الدروز الأعظم موجهاً نحو دير القمر حيث هربت جماعات كبيرة من المسيحيين من الجوار للاحتماء. وسكان تلك المدينة ولاعتقادهم بأنهم تحت رئاسة الحاكم التركي مباشرة والجيش المعسكر تحت أمرته تصوروا، بلا جدوى، أن التيار الحربي سيمر بهم دون إنزال أي ضرر. ومع أن رجالهم هوجموا وقتل أحدهم فانهم كتبوا كرماً منهم إلى الدروز أنهم كانوا راغبين في أن يبقوا على وفاق معهم وأنهم يغضون الطرف عن هذه التعديات. والأخر، بينما كانوا يبدون رغبة معادلة من جهتهم لضمانة السلام، استمروا يحومون حول المكان كالطيور الجارحة.

وفي آخر نوار تعجب مسيحيو دير القمر، عندما حاولوا أن يخرجوا إلى القرى،

لرؤية بلدتهم في حالة حصار فالشرذمات الدرزية كانت تواجههم في كل منعطف والطرقات كانت مرابطة والمؤن قطعت عنهم. فالقمح في الحقول المجاورة قطع وحمل بعيداً. انهم وثقوا بغباوة باعترافات الدروز بالصداقة، وبحماية الأتراك لهم فهم يقومون بأقل التدبيرات استعداداً للحرب انهم رفضوا الإصغاء إلى النداء الذي أرسل إليهم من مراكز مختلفة وعلى الأخص من المطران الماروني طوبيا بوجوب الانضمام إلى القضية العامة والاشتراك بالدفاع العام «فرجال دير القمر الشجعان هم ساعد المسيحيين وهل أنهم سيقفون متفرجين غرباء أمام مشاهد ذبح أبناء دينهم!» وقد اجابوا على كل هذه المعاتبات أنهم يريدون أن يقفوا على الحياد وأنهم بكونهم تحت نظر الأتراك كما هو الواقع، فلا فائدة، بل غير لائق بهم أن يشهروا السيف. وعندما هبّت العاصفة وأحاطت بهم فجأة كانوا على عدم وفاق تام فيما يجب أن يعملوا. فلم يكن عندهم مؤونة ثلاثة أيام وهكذا وقفت المجاعة أمامهم وجهاً لوجه.

وأخيراً انفجرت العاصفة. ففي صباح اليوم الأول من شهر حزيران انقضت قوى آل جنبلاط وآل أبو نكد وآل عماد وآل حماده المؤلفة من ٤٠٠٠ رجل، على المدينة بحملة عنيفة. أما السكان فلم يبق لهم من الوقت ما يكفيهم لمحاصرة المراكز المهمة. ومع ما هنالك من الأعمال التي كانوا يقومون بها بسرعة فقد قاموا بدفاع المستميت. استمر القتال إلى مغيب الشمس وتمكن المسيحيون من إبقاء أعدائهم خارج البلدة وإنزالهم بهم خسارة فادحة فقد قتل أكثر من مئة بينما كان هنالك عدد كبير من الجرحى. أما هم فلم يخسروا إلا اثني عشر وقد حارب عدد من الجنود التابعين للمعسكر في صفوف الدروز بينما رفض الحاكم التركي التدخل حتى أن المسيحيين اشترك نصفهم فقط ـ هؤلاء الذين كانوا في جوار مركز الهجوم، والقسم الثاني رفض الانضمام ومنع أيضاً امداد رفاقه بالذخيرة اللازمة. فالخيانة فعلت فعلها لأن بعضهم كانوا على اتصالات سرية مع آل أبي نكد أسيادهم السابقين. وكثيرون اعتقدوا أنهم بمحافظتهم على التصرف الحيادي يضمنون عطف الأتراك الخاص. وهكذا ففي أشد حالات الضيق كان المسيحيون مترددين ومنقسمين.

وفي اليوم التالي استسلمت دير القمر للدروز. والمسنون من المسيحيين سلموا شخصياً إلى مشايخ الدروز، وفي ٣ حزيران وصل طاهر باشا من بيروت بصحبة ٤٠٠ جندي،

فلاقاه مشايخ الدروز إلى ضواحي البلدة وهناك عقدوا اجتماعاً. وبعد الاستسلام أحرق الدروز ١٣٠ بيتاً ثم انسحبوا. فتقدم إذ ذاك الباشا إلى السراي وجمع قادة المسيحيين وهاجمهم بلهجة شديدة فدعاهم فوضويين ومفسدين ونعتهم بمقلقي السلام العام، وقال لهم أنه عرف أن غايتهم كانت إدخال فرنسا وأخبرهم أن كل ما يحصل لهم كان عقاباً عادلاً لعدم موالاتهم وأنه يأمل أنهم سيصطلحون بعد هذا الدرس الكافي. وجواباً على اعتراضاتهم بأنهم أبرياء قال لهم: «الماضي مسامح ومن الآن فصاعداً أنتم تحت حماية حكومتي بسلام عودوا إلى أشغالكم الاعتيادية لا تخافوا أمراً ما فدير القمر سالمة كاستنبول».

سمح للمسيحيين أن يحتفظوا بأسلحتهم على أن لا يخرجوا من البلدة وقوافل البغال محملة طحيناً أرسلت إليهم من بيروت ولكن الدروز في الغالب كانوا يقطعون عليها الطريق فلم يصل منها إلا ما كان كافياً لحفظ الروح والجسد معاً، أما القمح القليل الذي كان في حوزتهم فلم يكن له نفع لأن الدروز قطعوا مجاري المياه ولم يبق للمطاحن ما يديرها. بقي الوالي في مركزه ثلاثة أسابيع تقريباً وأخيراً بالرغم من تضرعات المسيحية الملحة، رجع إلى بيروت، غير أن المذابح اليومية كانت تجري خلال مدة بقائه، فكل مسيحي يخرج إلى خارج البلدة كان يذبح حالاً وقد طلب عدد منهم النزوح ولكن طلباتهم رفضت بشدة.

أما سعيد بك جنبلاط فقد كان عند مهاجمته لدير القمر يدبر في آن واحد حقلاً أوسع للمناوشات، ففي صباح ذلك اليوم كان رسول يحمل كتاباً منه يدخل إلى مقاطعة جزين الآهلة بالسكان المارونيين. والمارونيون كانوا متلهفين ليسمعوه يقرأ. فقد أكد لهم فيه بشدة، نيته الحسنة وصداقته فانهم أولاده وقد تعهد على نفسه بأن لا يصيبهم ضرر فلينشغلوا باعداد محصول الحرير فليس هنالك ما يخيف فإذا حدث لهم أمر فانه هو المسؤول لأنه القوة الدرزية، والدروز بدون أوامره لا يجسرون على التحرك والرسول ترك المكان راجعاً يحمل كتاباً من السكان يعترفون له فيه بالفضل ويشكرونه على هذا الكرم النزيه.

ولكنه لم يكد يبلغ ضواحي القرية حتى كانت قوة من الدروز بقيادة سليم بك جنبلاط عددها ٢٠٠٠ درزياً تتقدم نحوهم وهي تنشد الأناشيد الحربية. والمسيحيون أخذتهم

الدهشة فلم يعرفوا إلى أية جهة يتحولون ولم يكن لهم من الوقت ما يكفي للاعتداد بأسلحتهم فالموجة غمرتهم إذ هجم عليهم الدروز بالسلاح الأبيض وفتكوا بكل رجل رأوه والنساء والأطفال هربوا برعب هائل كما هرب جميع السكان بصراخ اليأس الغريب إلى أقرب وادٍ تاركين قريتهم تلعب فيها النار، فقد قتل منهم اثنا عشر مائة رجل في مسافة ميلين فاللحاق كان سريعاً للغاية وعدد كبير التجأ إلى الكهوف وشقوق الصخور حيث مكثوا أياماً في حالة جوع مميت لا يجسرون على المخاطرة بالخروج.

وفي طريق صيدا سار عدد كبير انضم إليه كل الهاربين من القرى التي هوجمت مثل هذا الهجوم ولكنهم في الطريق هوجموا من قبل قاسم (العمادي) العميل المخلص لسعيد بك، مع عصابته وتبعوهم إلى أبواب صيدا حيث منعهم محمديو تلك البلدة من الدخول بينما عدداً من هؤلاء أسرع إلى الاشتراك مع الدروز وهنا بلغت المذبحة مداها فأكثر من ٣٠٠ مائة جثة نشرت على الشاطىء وفي الجنائن المجاورة وملأ صراخ النساء والأولاد الفضاء فبعضهن ذبح وبعضهن استبيحت أعراضهن، وتبعت الصبايا بعدد كبير مختلط من المحمديين والمتاولة الذين ظهروا فجأة وانقضوا عليهن انقضاض النسور على فريستها بينما أبى الدروز أن يقدموا على مثل هذا العار.

وعدة أديرة للرهبان والراهبات استلمت كتباً من سعيد بك متشابهة في معناها في اليوم نفسه ولكنها سرقت وغزيت ونهبت بنفس الخيانة. وشرّدت الراهبات عاريات تقريباً إلى الحقول وفي بعض الأحيان كن يتعرضن إلى تعديات شخصية. وأما الرهبان الذين لم يتمكنوا من تخبئة أنفسهم أو الفرار فانهم ذبحوا بلا شفقة. وبعضهم ذبحوا بهزء على أقدام مذابحهم. وفي دير مشموشة الغني، ثلاثون راهباً قطعت أوردتهم، أما النهب فكان في أقصى درجات الغرابة ـ فهنا آنية من ذهب وكاسات وصلبان مرصّعة بألماس البراق. وغير ذلك كوم من المال ـ وهي الحاصلات المتجمعة منذ جيل قدرت قيمتها بـ ٨٠٠٠٠ ليرة أما هذه البنايات فقد حرقت بعد أن نهبت تماماً.

وهكذا فجميع مقاطعات سعيد بك أطلق فيها السيف والنار واستمرت لمدة شهر أعمال التخريب والنهب والتقتيل، دون انقطاع. وفي صيدا أصبح الخوف هائلاً فالمسلمون كانوا في كل ساعة يصرّحون بقتل المسيحيين ولكن وصول دارعة صاحبة الجلالة (فيرفلاي) Firefly التي كان يقودها الكابتن مونسل Maunsell في ٣ حزيران والتدابير

الشديدة التي اتخذها الكابتن اللبق أرعبت نوايا الأول الخبيثة وضمنت الطمأنينة للآخرين.

ومنذ ابتداء المصادمات أرسل قادة الجماعات المارونية في كسروان وحتى المطارنة كتباً ملأى بالعبارة المهيجة الصاخبة للمراكز المسيحية الرئيسية بين الدروز تدعوهم للقيام بدون خوف على مضطهديهم واعدينهم بمساعدة سريعة. فرجال زحلة ودير القمر وجزين وحاصبيا وراشيا أخبروا لأن يكونوا فرحين فهذه حرب دينية «ان علم الصليب، الذي باركه الكهنة، رفع عالياً بين أهازيج الفرح، والمارونيون رسموا الصليب على أكمام أيامنهم، انهم.. أقوياء متحدين بشعور عام ويستطيعون أن يوزعوا قوتهم، ففي يوم معين ١٠٠٠٠ يسيرون في جهة و٨٠٠٠ في جهة أخرى و٥٠٠٠ في جهة ثالثة ماذا يخافون؟ لينهضوا ويضربوا بقوة فقضيتهم يجب أن تنتصر. وهنا استعاد المسيحيون معنويتهم وبدأوا ينتظرون منقذيهم بينما كانوا يشاهدون الخطر مواجهاً لهم. غير أن هذه المساعدة الموعود بها لم تنفذ وفي ساعة الحاجة وجدوا أنفسهم متروكين ليقاوموا بمنتهى ما يقدرون عليه.

ووقع أحد هذه الكتب في قبضة الدروز وإذ ذاك لم يعرف غضبهم حداً «هذه إذن حرب دينية فلتكن» هذا ما قالوه: «إن المارونيين يتهددوننا بالدمار، ليأتوا ولكن في هذه المرة إن شاء الله أعلام الدروز ستدق على أبواب طرابلس فالبلاد لنا أو لهم»، والدروز في الحقيقة شعروا بأن هذا النزاع يجب أن يؤدي إلى سيادة ناجحة دائمة أو خراب محتم وذل وهكذا أعلنوا الحرب الضروس. وقرروا في اجتماعاتهم السرية بأن لا يبقوا على أحد من الذكور المسيحيين فهذه الغنغرينة المارونية التي تتسلل إلى مجتمعهم السياسي يجب أن تستأصل من الجذور فالاسلام عند الحاجة ينهضون لمساعدتهم وإذ ذاك عندما يستأصل العنصر المسيحي من بينهم ترجع الأراضي التي اغتصبوها إلى أصحابها الأول، فهذا القسم من لبنان يصبح كما كان منذ القديم جبل الدروز.

أما في لبنان الشرقي فقد كان الدروز قد أتموا استعداداتهم وبدأوا يتخذون تدبيراً عدائياً. فالست نايفة شقيقة سعيد بك أخذت منه تعليمات خطيّة وكلمتها في كل وادي التيم الذي يشمل حاصبيا وراشيا كانت قانوناً، فالعقال الأشد تديناً يطيعون اوامرها طاعة عمياء. والأمراء الشهابيون الذين كانوا يحكمون في هذه القرى، وكانوا معرضين دائماً إلى تعديات الدروز المضايقة لسلطتهم وحتى لتعدياتهم على ممتلكاتهم لم يروا

مناسباً أن يطلبوا معاضدة المسيحيين. رداً على الدروز، بل كانوا منذ أشهر أو بالأحرى سنوات طلبوا فرقة تركية من والي دمشق ولكن طلبهم رفض بعناد. وفي خريف سنة ١٨٥٩ أبلغوا لفرحهم ودهشتهم أنه أجيب التماسهم فأرسل إليهم عثمان بك مع ٥٠٠ جندي لمساعدتهم وهذا تساهل فوق العادة أعطي لهم لغاية، وفي الحقيقة كان معداً لإثارة الدروز وتهييج كل كوامن مقتهم للمسيحيين. فالأمير سعد الدين نفسه رافق الفرقة إلى حاصبيا.

ولما شاهد المسيحيون المقيمون في القرى حول حاصبيا أن الدروز في تلك البلدة ينقلون أمتعتهم، تملكهم الرعب فدعاهم الكهول في حاصبيا ليأتوا إليهم لأن المكان مكان سلام وأمان. وقد قبل الاقتراح وفي خلال الأسبوع الأخير من أيار سنة ١٨٦٠ كانوا هم وعائلاتهم ومواشيهم ومنقولاتهم يصلون الى تلك البلدة من كل الجهات وأغلبيتهم سكنوا في الدار الكبير قرب السراي. وعندما أصبح الخطر قريباً اكتتب المسيحيون بخمس مئة ليرة قدموها إلى عثمان ليضمنوا اخلاصه. حتى أن النساء اهدينه أيضاً حلى وجواهر فأعطاهم أشد التأكيدات بصداقته وحمايته وهكذا هدأ روعهم قليلاً.

وباكر يوم الأحد في ٣ حزيران كانت القوى الدرزية ترى محتلة جميع الأعالي المشرفة على حاصبيا. ومنذ عدة أيام سابقة كان عثمان بك دائماً في بيت الست نايفة حيث كان بعض جنوده معسكرين. ففي الحقيقة لم يكن ليعمل شيئاً بلا إشارة الست نايفة. حتى وأن سعيد بك بنفسه كان قد أتى من المختارة وقابل عثمان بك والآغا التركي اللذين كانا صاحبي الأمر في راشيا على نبع بين هذين المكانين. والمسيحيون فور رؤيتهم الدروز طلبوا من عثمان بك القيام بالعمل وقد بادر إلى المفاوضة معهم فأرسل موظفاً ليعرف نواياهم وقد عاد هذا بالجواب أنهم على وشك الهجوم. إذ ذاك أخبر المسيحيين بوجوب الخروج للمدافعة عن أنفسهم وأنه على استعداد عند الحاجة لمساعدتهم.

تقدم منهم بضع مئات وانتشروا في مركز ممتد معتقدين بأنهم ينتشرون حول البلدة كلها - جماعات غير منظمة من غلمان مرد وشبان بدون آمر أو قائد. فالقادة الذين كان يجب أن يكونوا على رأسهم مكثوا في السراي خاملين ملتصقين بحماتهم الأتراك. تبودل اطلاق النار لمدة نصف ساعة بينما حمل الدروز حملة واحدة على نقطة معينة واستاقوا كل شيء أمامهم فهرب المسيحيون المندحرون جملة إلى السراي حيث سمح لهم بالدخول، أما

عثمان بك فتظاهراً بتنفيذ وعده أطلق رشقين من القنابل تهويلاً. وأصيب عدد كبير من المسيحيين الهاربين واثنان أو ثلاثة من الدروز من المتقدمين فلقوا حتفهم والآن انتشر الدروز في جميع البلدة وفي مدة ساعتين كانت كلها مغمورة باللهيب.

وعند ذاك ذهب عثمان بك إلى الست نايفة وسألها عن رغباتها. فطلبت تسليماً شاملاً عاماً من المسيحيين وتسليم أسلحتهم فأعطاهم عثمان بك بموافقتها، تعهداً خطيّاً يؤكد لهم فيه اهتمام الحكومة من أجل سلامتهم الشخصية. وفي الصباح التالي أتت صحبة عثمان بك إلى السراي. وقبل المسيحيون بالقوة الترتيبات القاتلة، كانت أسلحتهم مكوّمة كلها في وسط الساحة الكبرى. وكان أحسنها يؤخذ بواسطة الدروز والأتراك والباقي، وعددها ثمانماية رُزمت وسُلّمت إلى الاكارين الدروز لتنقل إلى دمشق في الظاهر ولكن هذه أيضاً أخذها فيما بعد ناقلوها.

والآغا التركي الآمر في راشيا وضع حالاً بعد مقابلته مع سعيد بك نطاقاً من الجند حول راشيا لمنع أي تسرب ممكن من قبل المسيحيين إلى الخارج. وقد حاول عدد كبير الهرب إلى حاصبيا غير أنهم صُدوا وصباح الرابع من حزيران أطلق الجنود الأتراك إشارة فهوجمت البلدة حالاً من قبل ١٥٠٠ درزي وتشبهاً بما كان في جزين والأماكن الأخرى فقد أعطي المسيحيون تعهدات بحسن نوايا أعدائهم. فانصرفوا كلهم إلى أعمالهم العادية بطمأنينة تامة وهكذا وقد أخذوا على غرة فلم يكن معهم الوقت الكافي ليأخذوا سلاحهم من بيوتهم. خلا مرة واحدة، هناك قاموا بدفاع شديد طوال النهار وأنزلوا خسائر مميتة بغزاتهم الكثيري العدد. وعندما ألقى الليل سجوفه عليهم وكانوا قد استنفذوا جميع ذخيرتهم تركوا حصاراتهم ولجأوا إلى السراي حيث كان الأمراء الشهابيون قد تقدموهم فاستقبلهم أصدقاؤهم الأتراك بذرعان مفتوحة ودعوهم كلهم إلى الدخول وأغلقوا عليهم الأبواب مقسمين بأن يحموهم ولو كلفهم ذلك أرواحهم.

وفي الوقت نفسه كان المسيحيون في سرايا حاصبيا يتذوقون يأساً مزدوجاً السجن، والجوع. أما الماء فكان ينال بصعوبة. والخبز كان أكثر ندوراً والقليل الذي كان ينال كانت أثمانه باهظة. أما طعامهم فقد كان نخالة ولوبياء مجففة وأوراق العنب. لجأ النساء يأساً إلى قطع ذخائرهن وتقديمها للجنود الأتراك لتحرّكن فيهم الشفقة وتوجهت الأنظار الآن إلى الست نايفة المنقذ الوحيد. فذهبت النساء والبنات إلى بيتها واندفعن نحوها

بجنون فرمين أنفسهن على قدميها وبعبارات محزنة من الألم التمسن منها أمراً بإخلاء سبيل آبائهن وأزواجهن. ولكنها كانت باردة وقاسية كالرخام. غير أن بعضاً منهن كن شركائهم في القرى المجاورة في الأراضي خاصة سليم بك صهرها. هؤلاء خلصوا وأخذوا إليها لأنهم لو قتلوا لما بقي هنالك من يشتغل أرضهم. وعدا عن ذلك فقد ارتأت أنها بحماية بعضاً منهم تتمكن من أن تشير إليهم بعظمة، عندما يأتي يوم الحساب الذي لا بد منه، كبرهان على أنها تدخلت شفقة منها ورحمة لصالح المسيحيين.

وصلت أخبار هذه الحوادث إلى دمشق فذهب رؤساء الكنيسة الروم والمطارنة والاكليروس والقناصل الأوروبيون جملة إلى أحمد باشا وطلبوا تدخله الحازم ومساعدته، فصدموا بعبارات التأسف لضعف القوة الحربية في حوزته واخبرهم أنه سيكتب الى مصطفى باشا في حوران ليرسل فرقة إذا كان في الإمكان إلى حاصبيا. وفي ذلك الوقت لم يستطع مصطفى باشا أن يضعف فرقته لأنه كان بحاجة إلى كل رجل ليتمكن من إخضاع العربان الثائرين. وهكذا امام هذه الأعذار والمحاولات التمس القناصل صدور أمر فقط، إلى عثمان بك لإحضار مسيحيي حاصبيا وراشيا إلى دمشق. والوالي لم يكن قادراً على التخلص من هذا فصدر الأمر. وقد حمله معاونه (أركان حرب) الخاص إلى كنج الصمد - شيخ درزي موظف في الحكومة كان معززاً بقوة من الشرطة للمحافظة على الأمن في البقاع - يحمل أمره إليه بالتقدم إلى حاصبيا وضمان تنفيذ أوامره وهذا الموظف العام الحازم النشيط الذي كان بنوع خاص موظفاً بناء على إشارة منه عند أحمد باشا، كان مشغولاً في الآونة الأخيرة بإتلاف سائر البقاع بالنار والسيف وإحراق جميع قرى المسيحيين والفتك بكل مسيحي يصل إليه. وعند استلامه الأمر تقدم مع الضابط إلى قرية القرعون قرب وادي التيم فجمع المسيحيين وهنأهم بسلامتهم وعلى رأس ١٥٠ فارساً منهم سار إلى حاصبية.

وفي الطريق انضم إليه علي بك حمادي معتمد سعيد بك جنبلاط الذي كان قد أرسل إلى المختارة فاستلم التعليمات وكان الآن في طريقه إلى حاصبيا على رأس قوة مؤلفة من ٣٠٠ رجل فوصلوا إلى الجوار ظهر اليوم العاشر من حزيران وكانت أصوات طبولهم تتجاوب في بطن الوادي. وكانت أسلحة الدروز وأعلامهم المنتصرة تلمع وتخفق تحت أشعة الشمس وفوق المدينة السوداء المتهدمة. وصلوا إلى السراي وترجلوا. وعندما

دخلوا دفعوا الهاربين من القرعون إلى الداخل ثم أعطوا عثمان بك أمر أحمد باشا فقرأه بصوت عالٍ. وكان فرح المسيحيين لا يحد، فقد أتت ساعة الخلاص أخيراً وأخذت الهتافات «بيعيش السلطان يعيش حماتنا الكرام» تنفجر من كل شفة. وقد رموا أنفسهم على بعضهم بعضاً يتبادلون القبلات الحارة وكلهم أخذوا يلتقطون الملابس القليلة التي كانوا تركوها كما وأن الضعفاء والعجزة تمادوا بطلب حيوانات تنقلهم فلا بد من أنهم لا يتركون ليموتوا في الطريق انهم يريدونهم يوماً واحداً فغداً سيكونون في دمشق.

وبعد ذلك ذهب الزعيمان الدرزيان ليقدما اعتباراتها للست نايفة فاستقبلا بجفاوة لقد كان الوقت حرجاً وكان عليها أن يقوما بمهمتها، فكل شيء كان محصوراً بالست نايفة وما كان سيقال كان يجب أن يقال بسرعة وكان على علي حمادي أن يقدم استعطافه نهائياً، ربما استعطافاً موثوقاً به، وقد قدمه. لقد كان سعيد بك غير لين غير أنه في الإمكان الانة قلب المرأة «هل أن كل المسيحيين سيذبحون؟» قال باهتمام محدقاً في وجهها: فكري بعائلاتهم وأراملهم وأطفالهم الأيتام وترفقي، اشفقي على هؤلاء الشبان الغلمان المرد أقضي على الزعماء الأكثر هياجاً والأكثر ضرراً انزلي وشاهديهم بعينيك يعدمون على مرأى من ذويهم، إذا أردت ولكن اعفي آه اعفي عن الباقين!» «غير ممكن!» بهذا أجابتهم ورفعت كتاب أخيها وقالت «إن أوامر أخي جازمة وصريحة، فلن يترك مسيحي حياً من سن سبعة إلى سبعين سنة» ولم تتلفظ بكلمة أخرى، وهكذا انصرف الزعيمان إلى السراي حيث كان الدروز عندها مجتمعين بهياج.

رمي القناع إذ ذاك بعيداً وأمر عثمان بك بإعلان النفير، فوقف الجنود على السلاح وكانت السراي طوابق عالية ذات غرف متسعة وعرصات فسيحة وعدد كبير من المسيحيين كان منتشراً فيها جميعهم يستعدون بفرح للرحيل. أمر الجنود بالذهاب إلى فوق وسوقهم إلى الساحة المركزية وبفرح وحشي ركض الأتراك وفتشوا كل زاوية ومخبأ على التعساء المساكين وحينئذ أجبروهم على النزول برؤوس الحراب يضربونهم ويهينونهم ويدفعونهم ويمزقون ثياب الأطفال الذين كانوا يتعثرون في سيرهم وتبعهم النساء والأولاد برعب غريب يصرخون ويولولون ويأملون حتى إذ ذاك أن يعطف عليهم فينجوا.

وهكذا فتحت أبواب السراي على مصاريعها ودخل الدروز بصراخ عال، ولكن كان

هنالك انتظار بعد، فقد كان الجنود لا يزالون مختلطين بالجمهور وقد أعطيت لهم المهلة لينسحبوا وبعد بضعة دقائق أعلن أن الساحة أصبحت جاهزة وصعد الأتراك جميعهم إلى الممرات والسطوح حيث صفوا أنفسهم كمتفرجين في تياترو منتظرين مشهداً عظيماً. وعند ذاك ابتدأت المذبحة فأطلق الدروز من أماكنهم رشقاً عاماً ووثبوا على المسيحيين باليطقانات والفؤوس.

كان أول ضحية يوسف رئيس كاتم سر الأمير سعد الدين فتعلق بركبتي عثمان بك، عثمان بك الذي كان قد دفع له مئتي ليرة بصعوبة ثمن حمايته ولكن البربري رفسه بقدمه على فمه فراح يتدحرج فأمسك وقطع أرباً أرباً مبتدئين بأصابع يديه ورجليه والأمير سعد الدين قطع رأسه بعده وأرسل تذكاراً حربياً إلى سعيد بك، وبالتدريج كان المجموع المتحرك مقضياً عليه. فكثيرون كانت تقطع أنوفهم وآذانهم وشفاههم وهكذا كانوا يعذبون قبل الضربة الأخيرة بينما التصقت النساء بالجدار وقد ملأن الفضاء بصراخهن فإذا أرادت احداهن أن تخلص من تحبه كانت تقطع تقطيعاً، ومع هذا فكثير من الأمهات كن ينحنين ويحتضن أولادهن فتضمه الواحدة منهن إلى صدرها محاولة أن تخفيه في ردائها وعندما تُكتشف قابضة عليه بجنون وتقاوم مقاومة تستطيعها الأمهات فقط. كان السيف وحده القادر على حل ذلك الانضمام وتفكيك تلك القبضة الشديدة. والأم والولد كانا يقضيان من ذلك الجرح القاتل وتمتزج دماءهما معاً.

حاول في الابتداء بعض المسيحيين النجاة من الباب، فألقي القبض عليهم جنود الأتراك وجردوهم من ثيابهم ثم أرسلوهم إلى الدروز وفي بعض الأحيان كانوا يأخذونهم بأنفسهم وبينما كانت المذبحة قائمة كانت الأروقة تردد العبارات الوحشية، «اعطه ضربة إكراماً للفرنسيين، وأخرى إكراماً لقنصله، لا شلت يداك»، هذه كانت المناداة التي انتشرت إذ ذاك أما الشهيد فلم يخرج منه حتى الأنين وما سمعت صلاة ما للرحمة فقد كان كل واحد، عندما يأتي دوره يقدم جسده ليقتل، طالباً بلطف ألا يعذب وكان يكتفي بأن يقول بحرارة «باسمك يا سيدي المسيح» ويردد قاتله «أي أدعو مسيحك وانظر إذا كان يقدر أن يساعدك الآن ألا تعرف أن الله درزي؟».

وقد جاءت الست نايفة ودخلت السراي بعد مغيب الشمس بساعة وكان الظلام دامساً، فطلبت قنديلاً ولما أحضر لها أمرت بأن يحمل أمامها، وأخذت لمدة طويلة تسرح

نظرها بهذا المنظر المريع ثم قالت: « لقد أحسنتم أيها الدروز الأمناء هذا ما كنت انتظره منكم » وإذ ذاك تقدمت منها بعض النساء، والتف حولها الأمراء الشهابيون الذين كانوا مختبئين في بيوت الحريم وقبل هؤلاء أقدامها فطلبت منهم أن يتبعوها. بينما كان الأتراك في كل هذا الوقت ينتقلون في الساحة كالمتفرجين تحت ستائر الظلام يقلبون أجسام الموتى طلباً للنهب وحينما كانت تظهر لهم أية علامة للحياة كانوا يعالجونها « بضربة الرحمة ».

الفصل السادس

١١حزيران (يونيو) ١٨٦٠ مذبحة كناكن يقوم بها اسماعيل الاطرش ـ ١٤ حزيران (يونيو) زحلة تسقط بعد حصارها ـ ١٩ حزيران ذبح الذكور في دير القمر.

الفصل السادس

ان اسماعيل الاطرش ودروزه الذين يبلغون ٣٠٠٠ رجل والذين كان نصفهم خيالة، تحركوا بعد عشرين واربع ساعات من استلامهم الكتاب المحكي عنه في الفصل السابق من سعيد بك جنبلاط. وقد ساروا راسا إلى وادي التيم الذي وصلوه في اليوم الثالث. وصلوا في اليوم الثاني من سفرهم الى كناكر، وهي بلدة **مسيحية** كبيرة على بعد عشر ساعات من حاصبيا حيث هرب عدد غفير من المسيحيين الذين كانوا يشتغلون في الحصاد املاً بالحماية، ولما كان الدروز متشوقين ليُلحموا سيوفهم ذبحوهم جميعاً وفي اليوم الحادي عشر من حزيران مروا تحت مرتفعات راشيا عازمين على التقدم الى زحلة. ولكن، لكونهم دعوا ليصعدوا الى القرية السابقة الذكر بهتافات عالية فقد تحولوا وصعدوا اليها وحطوا رحالهم امام السراي وهناك، كان الاتراك لايام خلت يتلهون بسرقة وسلب كل ما كان يملكه هؤلاء المسيحيون البؤساء الذين كان عددهم ١٥٠ مسيحياً والذين كانوا ينظرون اليهم بثقة شديدة معتبرينهم منقذيهم، وهكذا كانت فريستهم جاهزة للذبح.

عقد اسماعيل الاطرش اجتماعاً خاصاً مع الآغا التركي وبغمزة عين فتحت ابواب السراي ودخلها الدروز وما حدث كان صورة مصغرة لما حدث في حاصبيا في اليوم السابق. والامراء الشهابيون، الذين كانوا محمدين ذبحوا أيضاً فان ذنبهم القاتل كان انهم اصدقاء المسيحيين. ولما انتهت هذه الرواية الدموية توحدت قوى دروز حوران مع قوى دروز وادي التيم وسارت الى البقاع، وفي الوقت نفسه كانت الجيوش التركية المعسكرة في حاصبيا وراشيا تنتقل الى دمشق حيث باعوا علنا منهوباتهم في الاسواق مثل: الساعات، والجواهر والمعاطف. والآنية الكنسية، واثواب الرهبان المزركشة الثمينة.

كان المنظر العام الذي استقبل به البقاع اسماعيل الاطرش ومجموعة محيا امالهم **ومفحا** ظمأهم للاخذ بالثأر؛ فقد كانت كميات من الدخان الاسود تتصاعد من كل جانب من

من القرى المحروقة والمغزوة. ومن حين الى آخر كان يمر بهم جماعات من المسيحيين المذعورين مسرعين الى اقرب كهف في الجبل أو مخبأ في الادغال أو مغارة بين الصخور فقد كان الرجال يقتلون في اماكنهم وكانت النساء تنهب ويخلى سبيلها. وعم البلاء حتى سهول بعلبك التي ارسلت الى السماء لهيب الخوف والرعب.

فهناك أيضاً كان المسيحيون يصادون كما تصاد الوحوش البرية. وكانت بيوتهم تحرق ورجالهم تذبح ونساؤهم تستباح. فإن الاتراك كانوا يمارسون التهتك. اما المتاولة الشرسون فقد كانوا يتنافسون في القسوة بالذبح بينما كان الضابط القائد على رأس غير النظاميين يشق الطريق مشرقاً واضحاً في الطليعة حتى ارتفع من الجوامع والمآذن النداء الدموي واختلط مع دعوة المؤذن للصلاة كما وانه كان بالامكان ان يسمع نداء يبلغ المؤمنين انه بموجب فرمان امبراطوري كان المسيحيون معدين للتلف والدمار وبيوتهم وممتلكاتهم غنيمة قانونية.

وهكذا كانت الحرب الاهلية تضطرم في لبنان منذ ثلاثة اسابيع للقضاء على المسيحيين المقيمين بين الدروز. اما امراء ومشايخ المارونيين الذين كان بأمكانهم ومن واجباتهم ان يتقدموا لمساعدتهم فلم يقطعوا ولا مرة واحدة الحدود التي تفصلهم عن الدروز. فالخمسون الفاً من المقاتلين الذين عربدوا عالياً مكثوا في حالة معيبة من الخمول. فآلاف كانوا يجتمعون في نقطة معينة ضمن حدودهم، ويضيعونَ بلا فائدة عدة ايام في انفاق المؤن التي كانوا احضروها معهم فيسألون الزيادة في القرية التي يعسكرون فيها وعندها ينسحبون تدريجاً واخيراً يختفون.

والقائمقام المسيحي الذي كان قد باع نفسه للاتراك الح على الامير الذي يخص عائلته لكي لا يشترك في النزاع فبدونهم، لايتحرك اتباعهم ومريدوهم. بينما غالبية الاول كانوا يرغبون في نجاح الدروز، فان النزعات الديموقراطية التي تبرهن انها كانت قاتلة للسيادة الاقطاعية لمشايخ آل الخازن في كسروان يمكن ان تبرهن بقوة عداءها لسلطتهم. فقد كان فلاحوهم اظهروا علامات الموافقة ان لم يكن علامات الثورة. فانتصار الدروز كان انتصار الحكم الاقطاعي ومن المؤكد أن الدروز وفي اكثر من مناسبة قدموا خدماتهم لحفظ حقوق الامراء المارونيين الاقطاعية عندما كانت تهدد بثورة ما.

فاعداء الدروز الالداء لم يكونوا الارستقراطيين المارونين بل كانوا الاكليروس

الماروني. فالاول لم يقوموا، من قلوبهم، بأية حركة ضدهم اما الامراء الشهابيون، والذين ليست له اية ميزة اقطاعية، ولكن لأهميتهم من حيث جاه اسمهم فقد كانوا اينما ظهروا في هذه المشاهد ادوات فقط في ايدي الآخرين وقد جرّوا بواسطته على انفسم قسماً كبيراً من نقمة الدروز وحقدهم. فواحد من مشايخ المارونيين في الشمال لم يتحرك ابداً. وفي الحقيقة فقد تقدم واحد منهم باستعدادات كبيرة وقوة كبيرة وتهديدات اكبر واخيراً احتج، بمنع القنصل له عن التقدم كعذر لجبنه وعدم كفاءته. وتحت هذه المؤثرات لم يكن من المدهش ان يجتاح الدروز ساحة القتال.

لقد كان كل شيء الان يضمن لهم سيادة ظافرة، مما لم يكونوا بعد قد نالوه ابداً، او ومض في خاطرهم نيله حتى بصعوبة. غير انه بقي للمسيحيين معقلان دير القمر وزحلة واحدة منهما خضعت والاخرى متكبرة مستهترة كالعادة فاذا دقت اعلامهم هناك فالمسيحيون في جبال الدروز سيصبحون فيما بعد ذلك خدمهم وعبيدهم. وهكذا فقد كانت جميع قواهم توجه الى زحلة. فتجمعت القوى الدرزية من كل النواحي حول البلدة المنشودة، اذ عسكر اسماعيل الاطرش على بعد ميلين منها وانضم اليه حالاً جماعات كبيرة من البدو والاكراد جذبوا الى الموقع كما تجذب النسور برائحة الجيفة والمتاولة من بعلبك تحت قيادة امراء بيت حرفوش كذلك وعدوا بتعاضد عظيم.

واذ رأى عقلاء المسيحيين في زحلة ان العاصفة على وشك الانفجار عليهم كتبوا بعبارات مؤثرة الى القناصل الاوروبيين العامين يلتمسون منهم تدخلاً حازماً مع خورشيد باشا حتى يرسل قوة حربيّة لتحميهم فأمرت على الاثر فرقة تركية بالسير الى هناك ولكن عوضا عن ان تدخل البلدة وقفت على مسفة ساعتين منها وفي مركز يمكنها، عند الحاجة من الاشتراك مع الدروز، والقائد ارسل، بعد وصوله بوقت قليل يطلب مشايخ الدروز الرئيسيين وبقي معهم في اجتماع ودي طول الليل، وباكراً في الصباح عاد الزعماء الدروز الى مراكزهم متهيجين كثيراً وواثقين بلا ريب بالاحترام الكلي والعطف العملي من قبل حلفائهم الودودين الاتراك.

اما سكان زحلة فقد كانوا الان منهمكين بأخذ التدابير لدفاع يائس. فقد كانت البلدة حسب تقديرهم منيعة لا تؤخذ. وقد كانوا يشجعون بعضهم بعضاً بأعادة ذكر كيفية هجوم الدروز عليها في سنة ١٨٤١ والتطامهم بها كما تلتطم الامواج بالصخور ثم

تفرقهم عنها كما يتفرق الزبد؛ وكيف ان اجراس كنائسهم كانت تتجاوب باعجاب في تلك المناسبة ان مريم العذراء نفسها كانت تتدخل لصالحهم، وحينذاك بتجديف شديد المطابقة لامثال تلك الاعتقادات الكافرة اطلقوا بنادقهم في وجه السماء الفسيحة هاتفين «ان الله نفسه لا يستطيع ان يأخذ زحلة».

هكذا كانت العربدة الهائجة عند مسيحيي زحلة فقد سبق ان عصوا قائمقاميهم وقاموا بثورات ضد امرائهم متمنعين عن دفع المستحقات القانونية. وعينوا بلدية خاصة بهم وكما تكون الحالة العامة في كل مجموع يخرج عن حدود النظام، كانوا مفرقين منقسمين الى احزاب يترصد كل منها الفتك بالاخر وفي بعض الاحيان يفتكون فعلاً ببعضهم بعضا ولا تجتمع كلمتهم حتى امام الازمات الخانقة.

لقد كان لهم، مذّ ان كبرت بلدتهم وتزايد عددهم سمعة حسنة ومقاماً سامياً فزحلة كانت درع المسيحيين ومصدر الرعب للدروز وفي الحقيقة، ففي منطقة معينة من سكانها، لم يكن اي مسيحي اياً كان الوقت الذي يأتي فيه، يهان أو يعاقب وكان الدروز ينظرون اليها بتأثر. فليس من السهل التحرش بها ولكن مدّ الحرب كان الان يتزايد وكان لا بد من حك معدنها على بوتقة الامتحان. وعندما تأكد اقتراب الدروز عقدوا اجتماعاً عينوا فيه زعماء ووظائف ولكن الاوامر التي كانت تستقبل بفرح في اللحظة الأولى كانت تعصى في الثانية وان حماس الصباح كان يتلاشى امام، منازعات التحاسد والاتهام بالخيانة والمغامرات التي كانت موضوع مجادلاتهم المتبادلة، في المساء. ولكن السحابة كانت تتجمع بسرعة فالاعداء كانوا على الابواب وكان من الضروري ان يعملوا شيئاً. وفي ١٤ حزيران تقدم مئتا (٢٠٠) خيال و ٦٠٠ مشاة الى سهل البقاع لملاقاة العدو وكانوا يرون من مسافة ساعة. والمسيحيون غير مكترثين بالنظام، ومتعامهين عن الخطر، انتشروا غير هيابين في الحقول فالبعض كانوا واقفين والاخر كانوا يخططون الخنادق ويبدأون بأسعار نار حامية. اما الدروز المشاة فقد لجأوا الى المناوشة جماعات متراصة واوقفوا اطلاق النار تاركين الميدان في هذا النهار لفرسانهم، والاخر وقد انضم اليهم جماعات هائجة من العرب والاكراد جرّوا حولهم بغرابة وطوقوا بسرعة المسيحيين المقاومين من كل الجهات واخذوا يمسكونهم واحداً واحدا. وهكذا اصبح انهزامهم السريع عاما وكانت خيول المسيحيين تركب وتشرّد وقد عاد العرب والدروز الى معسكرهم يحملون سبعين رأساً من

رؤوس المسيحيين على رؤوس حرابهم وفي اليوم الثاني قام المسيحيون بهجوم اخر في مجال افسح ولكن بنفس النتيجة. والان، الزموا انفسهم الدفاع عن النفس.

وعلى اتصال بزحلة، ملاصقة، الى درجة تمكننا من تسميتها ضاحية تقع المعلقة مقر قائمقام البقاع التركي ومعسكر الفيلق التركي الصغير وهؤلاء كانوا بلا ريب مدربين للقيام بقسطهم والمسيحيون هنا كما في كل مكان كانوا قد بينوا مخاوفهم واضطرابهم الى الموظفين الاتراك القريبين منهم وكانوا يستحصلون، بنفس الطريقة، على اعظم التأكيدات المفرحة بن نيتهم الحسنة وعطفهم، أنهم كانوا اتباع السلطان، والجيوش الامبراطورية كانت مكلفة بحمايتهم. وفي ١٦ منه وصل الى المعلقة موظف من قبل خورشيد باشا ليستطلع حالة المسيحيين في زحلة باعتبار انه يرغب في ان يقدم لهم كل مساعدة ومدد يمكن أن يحتاجونها. والمسيحيون الذين كانوا الآن في اعظم حالات يأسهم استقبلوه بفرح وامتنان والتمسوا بالحاح زيادة عدد الجيوش. وفي الصباح تركهم بعد أن قطع لهم وعوداً بالاسراع في تعزيز القوة.

وفي طريقه راجعاً الى بيروت التقى بعصابات من الدروز بين الحين والآخر ينشدون اغانيهم الحربية ويسرعون نحو مشهد القتال فكان يقول لهم: «الى الامام الى الامام الى زحلة» ثم يستطرد مشيراً الى تلك الناحية «غداً سأكون معكم» وبعد مقابلة دامت ساعة بينه وبين خورشيد باشا عاد، عملاً بوعده بجند أكثر، ولكن ليس الى زحلة. فالمسيحيون في تلك البلدة المحاصرة كانوا يُنصحون يومياً من القائمقام التركي بترك السلاح والاتكال عليه وعلى الجيوش التركية تلك التي كانت قد صارت في متناول اليد. وبعملهم هذا كما قدم لهم، يقومون بتصرف سلمي ويقدمون اشارة غير مجادل فيها عن نواياهم الودية ويلقون التبعة ومسؤولية الحرب على الدروز وحدهم واذا بعد ذلك تجاسر اولئك على مهاجمتهم فان الجيوش الامبراطورية ستصدهم وتلحق بهم.

بدأ عدد كبير يميل الى هذا الاقتراح المعقول الذي بواسطته تحقن دماؤهم الخاصة وتضمن السلامة العامة ولكن الاكثرية قررت انه من الافضل الاعتماد على أيا منهم الخاصة والموت دفاعاً عن الشرف والايمان وانهم، في حالة فشل محتم، ما دامت الجبال خلفهم، يلجأون اليها عند انقطاع الامل، مع عائلاتهم، وهكذا برق نجم سعدهم، فلو انهم سلموا سلاحهم ومكثوا في اماكنهم لكانوا ذبحوا ولم يبق على رجل منهم.

وفي صباح الثامن عشر منه هجم الدروز بمناوشات بارعة واعمال راي. فقد استمر اطلاقهم النار مدة اربع ساعات من الجنائن الممتدة على موازاة حضيض القرية. فجمع المسيحيون كل قوتهم في تلك الجهة وحاربوا بشجاعة عظيمة فإن مجمل قوتهم كانت ٤٠٠٠ رجل بينما كان عدد الدروز وحلفاءهم يبلغ ضعف هذا العدد. وبالحال شوهد فريق مؤلف من ١٢٠٠ رجل يهبطون من المرتفعات تدريجاً ويتقدمون غير مكترثين بالنار التي القيت عليهم، سيوفهم مسلولة في ايديهم. وبالرغم من أنه قتل عدد منهم فانه لم يوقف حركة تقدمهم شيء وفي اقل من نصف ساعة كانت العصابة في قلب البلدة وبينما اشتبك بعضهم بالعراك وجهاً لوجه مع المسيحيين في الشوارع اضرم الآخرون النيران في البيوت. فامتدت النار بسرعة. وهكذا اصبح الحريق عاما اما المسيحيون فتولاهم الرعب وتركوا مراكزهم وبادروا الى الفرار.

والآن في وسط معمعة القتال كان صوت الدروز ينادي بوضوح لا تمسوا النساء، لا تمسوا النساء بأمر من زعيمنا خطار عماد: ان كل من يمس امرأة يقتل. وتهيأ حرس درزي في الحال لأخراجهن بسلام من مراكز الخطر. ومع ذلك فان كل ذكر كان يلقى القبض عليه ما عدا الاطفال، كان يذبح بلا شفقة. والسواد الاعظم من الجيش التركي اقترب من الدروز كثيراً عندما تقدموا الى الامام من داخل البساتين بينما عدد كبير من الجنود اختلطوا في صفوفهم واشتركوا في اطلاق النار واما سكان زحلة الباقون فقد هربوا الى الجبال الشمالية عند غروب الشمس واصبحوا حالاً في مقاطعة المارونيين حيث لم يهتم الدروز في ذلك الوقت في اتباعهم.

وانتشر خبر اخذ زحلة انتشار النار في جميع لبنان، فاستقبله الدروز بفرح لا يوصف والمسيحيون بحزن وخيبة واعتقد الجميع ان المنازعات الآن انتهت. قد يمكن أن يحدث معارك دموية بعد ولكن القضية المسيحية ضاعت بشكل مخجل وجهالة. فالخيانة التركية والجبن الماروني سببا خرابها. فمع وجود ١٥٠٠٠ ماروني شاكي السلاح على بعد ست ساعات من زحلة لم يتقدم واحد للدفاع عنها. وفي خلال هذه الحوادث القصيرة بل الطارئة لم يخاطروا ولو مرة واحدة باجتياز الحدود الى المقاطعة الدرزية لنجدة ابناء دينهم. انهم كانوا ضحية ادعاءات المارونيين الفارغة وانهم غسلوا بدمائهم خيانة ارستقراتيتهم الجشعة وهذيان كهنوتهم المتعصب الذليل وثرثرته الفارغة.

لقد سقطت زحلة ولكن ما دامت دير القمر واقفة فالانتصار الدرزي كان لم يزل، في نظرهم، غير تام وعليها الان، هجم الدروز كالذئاب المفترسة. لقد كان حقيقا انها سلمت ولكن الاوامر للاخذ بالثأر لم تعرف قانوناً انسانياً أو الهياً.

وفي ١٩ منه بدأت اقسام متفرقة من الدروز تدخل البلدة وكانوا حيثما يجدون مسيحياً يجردونه من السلاح وحينئذ بدأوا يدخلون البلدة وينهبون المخازن والبيوت. وبعد الظهر اطلق بعض الجنود الاتراك رشقاً، وحالاً سمع صوت اطلاق بنادق الدروز في كل الجهات وهرب المسيحيون برعب الى السراي وسألوا القائمقام عن معنى كل ذلك «الم يعد هو بأن يقاوم كل اعتداء يمكن ان يشنه الدروز عليهم؟ أنهم كانوا يدخلون البلدة بالمئات والالوف» وقد اخبروا جوابا على ذلك بأنه لا موجب للخوف ولكن زيادة في الضمانة فانه من الاحسن أن يحضروا كل ادواتهم الثمينة الى السراي فهناك تبقى كلها غير ملموسة الى ان يستتب النظام. ومنذ ذلك الحين بدأ الرجال والاولاد والنساء يتدفقون الى البناء من كل المواقع يحملون الحقائب والصناديق وبقج الثياب، والكتان والمجوهرات من ذهب ولؤلؤ وماس بكثرة. غنيمة كبيرة، بدأ الاتراك حالاً باقتسامها فيما بينهم.

وبعد ذلك بدأ الذبح، فعندما كان المسيحي يُرى كانت تطلق النار عليه أو يذبح. كما وان اللهيب انتشر في الوقت نفسه في عدة اماكن فكان صوت الصياح والولولة والنواح هائلاً مخيفاً. فالكهنة هربوا الى كنائسهم حيث ذبحوا على اقدام المذابح، وكل الذين تبعوهم الى المكان المقدس ذبحوا أيضاً على البلاط، وكان الجنود الاتراك ينادون على الدروز الذين كانوا منهمكين في نهب البيوت بالخروج وذبح الكفرة أنهم يحرسون النهب الى ان ينتهي العمل. وفي صباح ٢٠ منه كان الدروز بقيادة علي بك حماده متجمهرين امام السراي التي كانت تحتوي على اكثر من ١٢٠٠ هارب مع عائلاتهم. فالقائمقام رفض ان يفتح الابواب ولكنه أشار الى حائط منخفض بقربه. وهنا ابتدأ الدروز يتسلقونه في الحال ويتدفقون الى الدار الكبير كالسلاقية في حظيرة الغنم.

أُمرت النساء بأن تبتعد عن الرجال وتتراجع، ولبرهة كانت الزوجات تنضم الى الازواج والابناء الى الامهات ولكن السيف البارق كان ينفذ التفرقة المميتة وهكذا تجدون الان كل اهوال حاصبيا. فقد كان لوقع ضربات الفأس والطبر صوت كصوت قطع الاشجار في غابة ما. وان كل انواع المسبات واللعنات والاهانات التي كان يمكن النطق

بها أو اجراؤها كانت تنزل بواسطة الدروز على ضحيتهم المستسلمة. ولو فرض ان احداً حاول اخفاء نفسه فقد كان الاتراك يكتشفونه ويدفعون به اليهم ولو فرض أيضاً ان احد الدروز اظهر شفقة ما فقد كان التركي هناك يعيره بضعفه ويحمسه لاتمام عمله.

دامت هذه الاعمال الجهنمية ست ساعات حتى ان الدم ارتفع اخيراً الى فوق الاعقاب، وجرى الى السواقي وتدفق من المزاريب وانساب في الشوارع، والان اتجه الدروز، وهم واقفون على فريستهم الممزقة الى النساء وبسيوفهم في صدورهن طلبوا منهن ان ينادين «يعيش مولانا المنتصر علي حاده» والمخلوقات الضعيفة المرتجفة اللواتي سالت دموعهن على الخدود، اللواتي خنقت العبرات اصواتهن، وكانت شعورهن المنثورة واذيال ثيابهن غاطسة في الدماء صرخن «يعيش مولانا الظافر علي حماده» كل هذا والكولونيل التركي جالساً عند الباب يدخن غليونه الذي كان مسنداً الى جثة ضحية.

ان مشايخ الدروز كانوا قد قرروا هذه المذبحة الفظيعة - لدير القمر منذ ان استسلمت وسعيد بك جنبلاط في خلال الاسابيع الثلاثة التي تلت الحادثة الأولى كان يركب دائماً الى المختارة ويتصل بانصاره والقائمقام التركي في قصر بيت الدين الذي كان يشرف على البلدة. وكان خولية علي حماده عند تركه هذه المؤتمرات يرعب المسيحيين باخبارهم ان ما تقرر كان ان لا يترك ذكر واحد حياً. فقسم من المسيحيين المعتبرين هربوا الى المختارة منذ ابتداء المنازعات ومستسلمين لصداقتهم القديمة مع سعيد بك وقد استقبلوا بترحاب ولكنهم عندما كانوا يلتمسون وهم ركوع السماح لهم باستقدام اقاربهم كان طلبهم يرفض بكونه غير ممكن. فالاخر كانوا غير مرغوب فيهم وهؤلاء كان يمكن ان يستفاد منهم وبناء على ذلك فانه عندما بدأت المذابح الدموية جيء بهم الى حضرة البك واجبروا على وضع اختامهم وامضاآتهم على عرائض تؤيد أنه كان دائماً يعامل المسيحيين بلطف متناهٍ وانسانية وأنه عمل كل ما يقدر عليه لانقاذهم. وفي اليوم التالي ضربت اعناق ثلاثة من المسيحيين امامه وفي ديوانه.

وفي يوم المذبحة اعتقد سعيد بك انه من السياسة ان يتغيب من المختارة ودير القمر. فانه في الموضعين كان عرضه لان يلتمس منه المسيحيون المذعورون التدخل لوقف الفظائع. فلو انه يرفض التدخل لكان اوجد في ما بعد ذلك برهاناً قاسياً ضده، وهكذا مهد لنفسه حجة ممتازة للانسحاب من هكذا مأزق. فبعد شروق الشمس بقليل ترك

المختارة على رأس فئة تاعسة من المسيحيين النصف عراة مؤلفة من رجال ونساء واولاد مصرحاً بأنه يقصد مرافقتهم بنفسه الى صيدا، «يا للنبل» يمكن ان يقال: «انه خلص المسيحيين فقد حرسهم بنفسه عمليا» ومع ذلك فانه لم يذهب معهم الى ابعد من جون وهناك تخلى عن مهمة الشفقة فأمور اكبر اهمية كانت تضغط على عقله.

ومسرعاً في عودته الى دير القمر بمثل طيرة النسر، ترجل في الساحة الكبيرة امام السراي بعد الغسق بقليل وقد كانت البلدة كلها ملتهبة. والسنة اللهيب تندفع تارة الى العلاء وطوراً الى الامام أو الوراء بلقماتها المحرقة. فالبيوت كانت تنهدم في كل لحظة بصوت مرعب وكانت الصرخات الجهنمية والصيحات القوية تملأ الفضاء وكانت الأرض تبعث بخارا دمويا والجثث المقطعة منتشرة هنا وهناك تلالاً تلالا وبعضها كان لا يزال يختبط. علي حماده مشى مرافقاً معتمده، ذهاباً واياباً ومدة قصيرة، ثم بعد ان اعطى بعض الملاحظات المجونية اختفى فجاة.

وباكراً بعد الظهر وصل خورشيد باشا من بيروت، ومارا في وسط البلدة تقدم رأساً الى بيت الدين التي ضمن جدرانها كان قد قتل اكثر من مائة مسيحي على ايدي جنود الاتراك والدروز. وقد استمر القتل اربعا وعشرين ساعة بعد وصوله في اماكن مختلفة دون انقطاع، في الاقبية المظلمة وفي المجاري وفي كل مكان يمكن الاختباء فيه كان السيف الذي لا يرق ولا يلين يتبع ويقتنص الضحايا. وبعضهم كان يخرج فيصلب والبعض احرقوا احياء واخيراً اطلق الباشا مدفعاً وتوقفت مذ ذاك الملحمة. والمشايخ الدروز فرحين مبتهجين ذهبوا الان يقدمون له اعتباراتهم فالاتراك والدروز قد احرزوا انتصارا مشتركا.

وفي اليوم التالي اجتمع جماعة تقرب من الفي ارملة وطفل يتيم خارج المكان الذي كان مرة منزلهم السعيد يلطمون أيديهم بيأس غريب، مهزومين من تأثير الجوع مصابين بالحمى من المشاهد الطويلة المؤلمة والخوف والرعب، وفاقدي الشعور تقريباً بالنواح المتواصل لا يكادون يكونون متسترين بالملابس القديمة وهكذ فمصيبتهم كانت كاملة. وبينما هم في هذا، جاء مشايخ آل ابو نكد وامروهم بالانسحاب وتحت مراقبتهم انسحبت القافلة الطويلة المحزنة هابطة الى الوادي واتبعوا الطريق الى شاطيء البحر وفي نفس المساء وصلوا الى شاطيء الدامور بين بيروت وصيدا. فأرسل الآن زعماء الدروز كتاباً الى القنصل

الانكليزي العام يخبرونه عن وصولهم الى تلك البقعة مع النساء اللواتي بقين احياء من دير القمر يطلبون فيه منهم ارسال قوارب لنقلهم بعيداً.

استدعاء غريب! فكأنهم كانوا يعتقدون بأن كل الجرائم التي ارتكبوها ستعتبر شيئاً اعتيادياً وان انكلتره ستخلصهم، عطفا منها، من هذا الارتباك.

وقد امرت بواخر صاحبة الجلالة: كانّت وموهاول Mohawle Cannet بأن تحقق حالاً نقل الهاربين التعساء. ولم تكد مراكبهم تبدو للعين حتى حدث اندفاع عام الى جهة الشاطيء وقد رمت بعض النساء انفسهن بين الامواج المزبدة وكانت بعضهن ترفعن اولادهن عالياً الى ما فوق رؤوسهن فعدد منهن كان قد اصيب بجراح من السيوف واكثرهن كن لم يذقن الطعام منذ اربعة ايام وقد وجهن كلهن لعنتهن على الاتراك بدلاً من الدروز، وكن يصرخن «لقد ذبحنا الاتراك» وليس فقط على شاطيء الدامور بل على طول الشاطيء من صور الى صيدا كانت جماعات من الثكالى المتألمات الهاربات من كل نواحي الجبال ترى متعثرات في طريقهن الوعرة. بينما كانت المدينتان مزدحمتان بالمئات المعرضات في الليل والنهار، الى تهكم وازدراء وتعديات المحمديين. ولكن بجهود غير متوقفة من القائدين وست West ولامبرت Lambert وبحارتها النشيطين انقذوا كلهم وجيء بهم الى قرب بيروت التي كانت نفسها في ذلك الوقت تعاني ازمة شديدة.

وفي ٢٢ حزيران ذبح احد المحمديين على مقربة من اسوار المدينة. فتعالت الصيحات حالاً بأن مسيحياً ارتكب هذا الفعل، فاقفلت كل المخازن بالحال وخرجت شرذمه من الاوباش المسلمين الى الاسواق بمظاهرةتنادي للأخذ بالثأر وتصرح بأن الوقت حان فتولى المسيحيين الرعب ولجأوا الى القنصليات الاوروبية وبيوت الاوروبيين للاحتماء، واحيط قصر العدل بجموع من المسلمين الذين كانوا يتهددون بكبرياء انه اذا لم يعدم القاتل عند مغيب الشمس فانهم سيقومون على المسيحيين ويذبحونهم اثناء الليل. وهكذا كان الخطر محدقاً حتى ان الاوروبيين الذين كانو يمرون في الاسواق كانوا يهانون فـإن القنصل الفرنسي العام أشهر سيفٌ في وجهه واشهر مسدس على رجل انكليزي.

وفي هذا المأزق الحرج رست احدى البوارج التركية في الميناء تحمل جيوشا بقيادة اسماعيل باشا (الآمر العام) الذي نزل في الحال الى البر، ان الهدوء والبرودة اللتين اظهرهما هذا الموقف اللبق طمأنت المسيحيين. لقد عـرض، اذ اقتضى الامـر، أن يضرب المدينـة

والكابتن باينتر Paynter من الاكسموت Exmouth عرض بنفس الحزم انزال كل القوة الموجودة. ومع هذا فقد اصر المسلمون بطلب الأخذ بالثأر. فالقـي القبـض على شـاب مسيحي تاعس شوهد على مقربة من مكان الجريمة فسحب وقد مزق على التقريب تمزيقاً. وهكذا فالمحاكمة المضحكة ابتدأت، وتبعها الاتهام والحكم بالموت ولكن الشاب المسكين قال بهدوء أو بطولة: «انا بريء ان الله يعرف أني بريء ولكن اذا كان موتي ضرورياً لأجل سلامة اخواني فاني اقدم نفسي مسروراً» واخذ الى خارج الابواب وأعدم. هكذا اجريت التضحية التكفيرية وعاد الهدوء.

ولكن التأثير على الرأي العام كان مع ذلك مؤقتاً فالخوف والرعب تملك كل الطبقات ففي كل ساعة كانت الاخبار ترد عن القيام بحركات من قبل الدروز فإن صورا كانت مهددة. وصيدا كانت على وشك ان تهاجم. وسارعت مرة ثانية مراكب الانكليز والفرنسيين عند أول اشارة لحماية المراكز المهددة حتى ان ولاية بيروت نفسها اصبحت من يوم الى آخر اكثر خطورة فالدروز مسلحين الى الاذقان كانوا يدخلون المدينة باستمرار ويسيرون بابهة في الشوارع ويستقبلون بالعناق والتهاني من قبل المحمديين ثم ينصرفون وقد زينت بنادقهم بالزهور والزنابق. اما التجارة فتلاشت تماماً والبنك العثماني شحن كل ماليته والبواخر الانكليزية التجارية المشحونة بضائع أمرت بأخذ كل محمولها الى مالطة، والعائلات المسيحية الرئيسية وحتى التجار من طبقة ادنى كانوا يهاجرون يومياً بالالوف الى الاسكندرية وسيرا واثينا والقـوارب كـانـت راسيـة على استعـداد لنقـل السكـان الاوروبيين عند اول اشارة ولم يكن هنالك شيء ليقنع المسيحيين سكان بيروت بسوى ان المصير الذي احاق باخوانهم في دير القمر وحاصبيا وراشيا كان ينتظرهم على ايدي الاتراك. وحكامهم وجيوشهم

أن السيرة التي جرى عليها الدروز حركت اقوى التهيجات الفكرية للقضاء على المقاطعات المارونية الصرفة. انهم لم يكونوا بعد اجتازوا نهر الكلب ولكنهم كانوا يبحثون بغزوة الى تلك الجهة كغاية ضرورية لانتصارهم المدهش. اما العلامة الاكثر خطراً من كل هذا فقد كانت ان خورشيد باشا ارسل اوامره لفيلقين تركيين بالاستعداد للمسير الى كسروان «للمحافظة على المارونيين» ومنذ ان اصبح هذا العمل المشؤوم معروفاً شعر القناصل الاوروبيون أنه لم يبق لهم لحظة واحدة لأضاعة الفرصة لقد رأوا

نوع تلك « الحماية » وانه لا حاجة الى القدرة على التنبوء بجلاء بأن امتدادهم الى المقاطعات المارونية التي تضم عدة آلاف من القرى ونصف مليون من الانفس تقريباً كان معادلاً تماماً لتسليمهم يداً بيد الى غزوة من قبل الدروز والاتراك مشتركين واجتياحهم بعد ذلك بالسيف والنار .

وقد سارع مستر مور Moore قنصل صاحبة الجلالة في اليوم السابع والعشرين من شهر حزيران لجمع زملائه واقترح التجربة في توجيه بيان مشترك رأساً الى زعماء الدروز انفسهم لانهم بمخابرتهم مع خورشيد باشا ينتقلون الى وحلة اعمق فكم من مرة فعلوا ذلك وكانوا مخذولين ومهزوءا بهم فضلاً عن ان خورشيد باشا كان اذ ذاك في صيدا يرأس اعمال التفظيع التي كانت تقترف يومياً، على مرأى منه دون أن يأخذ أية تدابير لكبح جماح مرتكبيها فاذا كان الاتراك لا يشبعون من الدم المسيحي فقد يكون من الامكان اعادة الدروز صدفة الى الصواب وهكذا يلغى الاتفاق بين الطرفين بمهارة. ويمكن ان تتوقف عندئذ المذابح.

وبناء عليه كتب البيان التالي: « اننا نحن القناصل العامون لانكلتره، والنمسا، وفرنسا، وبروسيا، وروسيا. نتأسف اشد الأسف لكوننا مضطرين بأن نصرح أن النهب، والذبح، والتخريب يستمر بشكل يثير اقصى درجات استهجاننا ولذلك فإننا نكلفكم رسمياً بالتوقف السريع عن كل هذه المصائب وبكوننا ممثلي الدول العظمى ، وبـأسم سفـاراتنـا اللواتي اعطيننا تعليمات رسمية بهذا الشأن فإننا ننبهكم أن مسؤولية ثقيلة ستقع عليكم في المستقبل اذا، وقعت حوادث ما موجهة منكم او من اتباعكم نحو المسيحيين، أو قراهم، أو ممتلكاتهم ولنصل الى هذه الغاية، وهي ضرورية فاننا نطلب منكم بشدة ان تصطلحوا في اقرب مدة ممكنة وأن تستدعوا عصاباتكم التي يمكن أن تكون موجودة في جهة دمشق، أو صيدا، أو زحلة أو دير القمر، أو كسروان أو اية ناحية اخرى. فكروا بالحوادث المؤلمة التي يمكن ان تشمل الجميع اذا لم تذعنوا للمطالب التي نوجهها الآن اليكم؟ واعتبروا أن حكوماتنا لا يمكن أن تنظر بعدم اهتمام لاستمرار مثل هذه الحالة ».

وقد اعطيت هذا المستندات إلى مستر غراهم Graham رحالة انكليزي سار بها من يومـه الى المختاره مقر سعيد بك جنبلاط حيث وصل باكراً في صباح اليوم التالي.

والتابع الانكليزي، كما لقب نفسه بجرأة، استقبل زائره باحترام مغتصب وارتباك

نفسي. مظهراً السرعة، اكد له عظم المهمة التي يمضي بها، فركب وتركه بدون لياقـة في حالة من الضيق. ولم يعد حتى خيم الظلام، عندما تنازل لتكليف نفسه للقضية المعروضة.

وبينما كان يصغي الى كل الطلبات المبينة والمناقشات والمعاتبات التي قدمها ضيفه فإنه كان من حين إلى آخر يخفف عن نفسه بالعبارات الآتية تقريباً « انا ارسل وراء المشايـخ ولكنهـم لا يأتون على صوتي وأمر الكتابة اليهم لا يجدي فلا سلطان لي عليهمْ وفي الحقيقة نحن على خلاف مع بعضنا بعضا. اني بسرور أُسيّر بعض رجالي لمرافقتك اذا كنت ترغب في أن تجول وتزور المشايخ ولكن أحداً منهم لن يتحرك إنشاً واحداً، فغداً عيد « اني لم اتدخل ولا بطريقة ما في الحرب لقد عملت كل ما كان بامكاني أن أعمله لأجل المسيحيين وأن محاولاتي الدائمة كانت تهدئة الدروز وضبطهم. ولكنهم لم يصغوا الي ولا قوة لي على اتباعي، أن احط رجل بينهم يعصي أوامري ويهزأ بسلطتي أنا اعرف أن كل انواع التقارير الكاذبة نُشرت عن كوني شخصاً ذا نفوذ بين الدروز وأن كلَّ اللوم بما هو حادث القي بدون عدل على بابي وأما من جهة الطلب لعقد صلح فإن هذا خارج عن السؤال لقد كنت دائماً في محيطي الوضيع من اشد المعجبين وفي الحقيقة من اشد الاصدقاء، للانكليز وأني أكون شديد التأسف لأن افكر بأن اعمل عملاً اقضي به على ثقة الحكومة الانكليزية، ومع ذلك فهي تقدر أن تعمل ما تريده انا عبد الملكة المخلص، لتعمل ما تريده ».

وكان « تابع انكليزي » آخر حاضراً عند ابداء هذه الملاحظات الفورية وقد أيد بشدة صدقها وحقيقتها مظهراً في الوقت نفسه جهله الخاص وبراءته من كل ما يحدث ـ وهذا الوجيه لم يكن سوى بشير بك ابي نكد الذي اقسم سابقاً أنه سيدك اساس بيته قرب دير القمر بجماجم المسيحيين والذي كان الآن بلا ريب قادراً على ذلك متى شاء .

ومستر غراهم Graham اذ لم يجنِ شيئاً من الهزء الجاف الذي كان مواجهاً به على هذه الصورة ولايجاده، بكثير من الدهشة، أن هذين البيكيّن كانا لا شيء تماماً، قرر أن يجرب حظه مع آخرين من مشايخ الدروز الذين يمكن ان يعترفوا أنهم شيء وقام بجولته في هذا السبيل. ولم يكن أي صائد ثعالب أكثر تحيراً أو اندهاشاً فقد كانت أكثر الثعالب تشتم رائحته فبعضهم كان يختفي في الأرض فلا يسمع به ابداً وبعضهم تجنبوه ولكنهم مسكوا اخيراً ولكن ليقدموا برهاناً عن ذكائهم ودهائهم « فانكليز الشرق » كانوا كلهم من هذا

الطراز . ومستر غراهم Graham، مع كل هذا ، رأى وسمع ما كان كافياً ليقنعه أن امرأ كان يهيأ وكتب الى القنصل الانكليزي أنه من الواجب أن تأخذ بيروت وصيدا حذرها . فالمهمة كانت على ما يظهر فاشلة . ومع كل ذلك فالزعماء الدروز مع كل تيقظتهم في احاديثهم وتشبثهم في مناصبهم التي كانت تظهر كأنها محقرة فيما لو تظاهروا باذعانهم للأوامر كانوا ادهى من أن يواظبوا على خطتهم عندما تُصادم هكذا بقوة ومنذ تلك اللحظة لم يعودوا يقومون بأي تقدم أو حركة معادية.

لقد كانت تقديرات القنصل الانكليزي العام صحيحة وتدخله جاء في وقته وهكذا استراح لبنان .

والاتراك الذين كانوا الآن قد وصلوا الى غايتهم بمذبحة شاملة للمسيحيين في مقاطعات الدروز اعتقدوا أنهم كلما اسرعوا في ايقاف العمل كلما كان ذلك افضل . فأقترح خورشيد باشا بأن يعلن السلام بين الطائفتين شريطة أن ينتسى الماضي فلا نهب يعاد ولا تعويض يدفع ، وقد دُعي الامراء المارونيون والمشايخ الى بيروت ليوافقوا ويشتركوا بهذا التدبير ، فالاعتراض والاحتجاج من قبلهم كان بلا جدوى . اذا وافقوا كان السيف يغمد واذا لم يوافقوا كان امامه كثيراً من الشغل الجيد ليقوم به ويجب أن يسمح له القيام به ولكن لغاية ما يتمناه الدرو .

الفصل السابع

٩ تموز سنة ١٨٦٠ المحمديون في دمشق يتدرون ضد المسيحيين - مذبحة رهيبة وحريق - عبد القادر ينقذ ١٢,٠٠٠ مسيحيا - اجراء احصاء للمذبحة - ٣ آب (اغسطس) مؤتمر الدول الاوروبية في باريس.

الفصل السابع

أن الثوران الدموي لم يكن قد انتهى بعد ففي التاسع من حزيران قام المحمديون في دمشق على السكان المسيحيين في تلك المدينة فغزوا حيّ المسيحيين وابتدأت بصراخهم الشيطاني اعمال النهب والحريق والذبح. ولعدة ايام خلت كان المسيحيون يضربون ويحقرون ويهانون في الشوارع بكل وسيلة ممكنة. وكان اذ ذاك عيد الأضحى على الابواب وكما أن المؤمنين كانوا يضحون الخرفان على جبل عرفات - تضحية دينية، فانهم في دمشق هذه السنة عزموا على أن يقدموا ضحية اثمن - أنهم سيضحون المسيحيين والاخر؛ وقد روّعوا اخيراً لـزموا بيوتهم يصرفون النهار والليل في التضرع والصلاة. ولما رأى القناصل الاوروبيون أنه لم تؤخذ التدابير اللازمة من قبل السلطة الحاكمة لايقاف روح التعصب هذه أو لمعاقبة القائمين بهذه الاعمال الارهابية تقدموا جملة مرة بعد الثانية الى احمد باشا الحاكم ليشعروه بالخطر الذي يهدد المسيحيين وليعمل الاجراءات اللازمة لحمايتهم وقد تظاهر في باديء الامر بجهل كلي ثم اعتذر، بعدم تمكنه لقلة القوى الموجودة لديه وبعد ذلك اظهر الأرتباك والخوف لاشتداد الازمة.

ثم أن تصرفاته المتتالية اثارت اقبح النزعات؛ وهكذا فإن لغته وسيرته كانتا تثبتان صحة ذلك. أنه كان في اجتماعات متتابعة مع بعض الوجهاء في تلك المدينة الذين اشتهروا بتعصبهم. وكان كلما ذهب الى الجامع تمركز حرسه على مقربة من الحي المسيحي بدلاً من أن يتمركز، كالعادة قرب حيّ المحمديين. وكان أيضاً قد نقل عائلته الى القصر الذي قد حصنه بالمدافع وضاعف عدد الفيلق الذي يحرسه - وأن كل التدابير، كما قال، أخذت لحماية المحمديين الذين كانوا على وشك أن يهاجموا من قبل المسيحيين كما بلغه بصورة اكيدة، من قبل هؤلاء المساكين المسيحيين العزل الذين لم يكن بينهم من يعرف كيف يحمل البندقية والذين كانوا مجردين من السلاح من أي نوع كان. وقد كان من الثابت بعد

كل هذه التصرفات الغريبة ، التي كانت تدل في معناها ومغزاها ، أن الاتراك كانوا هنا كما كانوا في أي مكان آخر متعطشين الى الدم المسيحي .

وقد أُمر ، كالعادة المتبعة سابقاً آحد الفيالق التركية بالتقدم الى الحي المسيحي لحماية المسيحيين ، وهو نفس الفيلق الذي منذ شهر كان حاضراً مذابح حاصبيا . وهكذا فقد روعت نفوس المسيحيين المساكين أمام هذه المناظر وشعروا أن يومهم حان ، ومع هذا مؤملين ولو في معاكسة الأمل نفسه ، فقد حاولوا أن يستميلوا قلوب حماتهم - فأولموا الولائم للضباط وعاملوا الجنود بالحسنى وجمعت مئات الليرات لتوزع فيما بينهم أو لتنفق على اكرامهم ولكن الوقت قد قرب والطبخة أصبحت ناضجة فالمعدات كلها جاهزة والممثلون اصبحوا عديمي الصبر لأفتتاح المسرح فلم يكن ينقص الا الاشارة . وهذه اعطيت اخيراً . فلمدة ايام خلت كانت الصلبان الخشبية تلقى في الاسواق ويبصق عليها ويُمرّ من فوقها فرفع المسيحيون عدة شكاوى على هذا الاحتقار لدينهم ولـكن دون جدوى وأخيراً في صباح ٩ حزيران القي القبض على ثلاثة فتيان من المسلمين بسبب هذه المخالفة واخذوا الى القضاء وقد حكم عليهم بأن يقيدوا بالسلاسل ويذهب بهم ليكنسوا الحيّ المسيحي . فقد كان المصير محتماً .

وفيما كان السجناء يمرون ، صحبة الشرطة ، في الشوارع كان الهياج بين المحمديين يزداد من لحظة إلى لحظة . وعندما اقتربوا من الجامع الكبير اقفلت المخازن المجاورة حالاً . وهرب تاجران الى تلك البناية حيث تقابلا لحظة مع رئيس العلماء وعندما خرجا رفعا اصواتها بصرخة قوية مُريبة « دين ، دين ، دين محمد » وهذه الصرخة المميتة انتقلت من فم إلى آخر ، وهكذا أنتشر الأضطراب المخيف من شارع الى شارع بسرعة البرق فتعطلت كل الاعمال واقفلت جميع المخازن وفي أقل من ربع ساعة كانت جماعة غاضبة تهز البنادق والسيوف والفؤوس وكل ما له صفة السلاح وتتقدم بحماس زائد الى ناحية الحي المسيحي وكانت ترى من كل الجهات جماعات الرجال تتراكض ، وكلها مسلحة الى الاذقان ، والاولاد والنساء غير المسلحين يصرخون مهددين الكفار ومنادين « اقتلوهم اذبحوهم ، انهبوا واحرقوا لا تتركوا واحداً حيّاً لا بيتاً ولا شيئاً آخر لا تخافوا الجند ،لا تخافوا شيئاً، فالجنود لن يمسونا » .

ولم يكد المجموع الهائج يبتديء هجومه حتى اطلق الحرس التركي قذيفة قرب كنيسة

الروم . وهذه القنبلة كانت محشوة بالبارود فقط وموجهة إلى فوق نحو غطاء كان يمتد فوق الشارع فأشتعل الغطاء - علامة إلى ان الحي المسيحي يجب أن يحرق وهكذا ابتدأت اعمال الحريق حالاً وظهرت الآن أسوأ التصرفات . فقد دُخلت البيوت ونُهبت فكانت جماعات عديدة تروح وتجيء حاملة المنهوبات من جميع الانواع . وسكان الملحقات اخذت تفد الى المدينة والجنود الاتراك المعسكرون على الأبواب كانوا يفتحونها على المصاريع ويدعون المعتدين الى الدخول . وأما اولئك الذين كانوا يأتون بدون اسلحة فقد كانوا يمنعون من الدخول الى ان يعودوا مسلحين كما وأن مجاري المياه قطعت . وفي المساء كان الحي المسيحي كله لهبة واحدة فألسنة النار كانت ترتفع وتنخفض متموجة تموجاً واسعاً كأنها بحر من نار وكان يرى وسط ذلك جماهير من النساء في حالة جنون بعضهن يحملن اطفالهن على أيديهن يصرخن ويندفعن الى السطوح ثم يقفزن من بيت الى بيت وكثيرات منهن زلت اقدامهن فسقطن وانكسرت ارجلهن أو أيديهن أو قضي عليهن . أما القسم الاكبر فقد هربن الى قلب المدينة واندفعن الى بيوت المحمديين حيث استدروا رحمة الراحمين .

وقد كان إلى الآن البرابرة يفتكرون بالنهب فقط ولم تصطدم تدابيرهم بأية عراقيل . أما المسيحيون فقد عرضوا أمرهم منذ البداية الى الجنود الذين طالما وعدوهم بالمساعدة والحماية . لكن الضباط اجابوهم بتوحش أنهم لم يستلموا أوامر للقيام بأي عمل . بينما كانوا زيادة في خوفهم ويأسهم يبصرون الجنود مشتركين في الهجوم وحاملين المنهوبات وزيادة فقد كانوا يوجهون حرابهم إلى صدورهم ويسدون في وجههم كل اسباب النجاة . ففي كل ناحية كان يجد الهاربون فولاذاً وناراً . ولم يكن هناك اقرب من خراب تام ودمار محتم بانتظارهم لولا ان الامل وافاهم في وسط المحنة .

فقد كان في تلك المدينة رجل منفي ذا شهرة يصرف ايامه ولياليه بالدرس والمذاكرة الدينية والصلاة . منفي وطني نزيه سليم القلب كانت حياته كلها عمـلاً متواصلاً من التضحية ،نزاع طويل وشريف في سبيل الواجب وكان مثل كل ذوي الاعمال الشريفة العظيمة مواجها بالبؤس والخسران . فكانت اكاليل جهاده نكبات . ومع غلبته على امره ، فقد كان يلبس اكاليل المنتصر ، كما يلبس الشهيد تاجه . لقد تقبل عبد القادر مصيره بفرح وقناعة وبسرور كان يعتبر انه بلغ الغاية . ولكن الغاية الالهية ظفرت لجبينه اكليلاً

آخر أكثر نبلاً ـ محمدة من الرحمة وبارشاد السماء، نهض هذا النهار ليقوم بعمل ينشر على اسمه الشريف ثوباً من المحامد البيّنة.

ولم يكد عبد القادر يتأكد من وجود الخطب حتى ارسل المغاربة الامناء الى حي المسيحيين مزودين بأوامر لأنقاذ كل المساكين المصابين الذين يصادفونهم. وقد انقذ مئات منهم بارسالهم الى بيتهم قبل الظلام. وعدد كبير هرع الى القنصلية البريطانية وعندما خيّم الليل دخل الحي جماعات من السفاكين اكراد واعراب ودروز واهاجوا الجمع الصاخب الذي كان قد برد حماسه فتجدد صياحه الدامي وبدأت الاعمال المميتة اذ ذاك. واستمرت المذبحة الفظيعة كل تلك الليلة الهائلة واليوم التالي.

وافاضة في الاسهاب، فإن كل الفظاعات كانت دنيئة كريهة هتك اعراض النساء واغتصاب الفتيات ـ وبعضهن في وسط الشوارع وعلى اصوات الضحك الخشنة والهزء الوحشي ـ كما وأن بعضهن سبين وحملن بعيداً. وهكذا اختفى مئات منهن يحملهنَّ إلى اماكن بعيدة الى الاماكن المجاورة حيث زوجن بسرعة الى محمديين. والرجال من سائر الأعمال اجبرن على ترك دينهم وختنوا في الحال بجو من الهزء ثم قتلوا. وكذلك فإن الكنائس والاديرة التي امتلأت لدرجة الاختناق في مرحلة الرعب الاولى، كانت تقدم اكداساً من الاجساد المختلطة بين جرحى ونصف اموات من الذين لقوا حتفهم نهائياً بين الانقاض الملتهبة والاحجار المتداعية عليهم بما يشبه هزة ارضية. وهكذا سدت الطريق العامة بالقتلى.

أما القول أن الاتراك لم يتخذوا أي تدبير لوقف هذه المذبحة الفظيعة وهذه النار فأكثر من الحقيقة لأنهم غضوا نظرهم عنها وحرضوا عليها وأمروا بها واشتركوا فيها وعبد القادر هو الوحيد الذي حال بين الاحياء والاموات وسرعان ما احضر المغاربة جميع الذين انقذوهم حتى تقدم منهم فطمأنهم وشددهم واطعمهم كما وأنه خرج بنفسه فأحضر جماعة منهم بنفسه وشكل جماعات منفصلة منهم كان يرسلهم مع حرس متيقظ الى القصر. وهناك، عندما ولى النهار المرعب، وجد ١٢٠٠٠ من كل الاعمار والاجناس كانوا مجتمعين ومزجوجين مع بعضهم بعضاً في ملجأ امين غير أنه مزدحم وهذه ثمرة جهوده التي لم تعرف كللاً. وهناك مكثوا اسابيع مضطجعين على الارض العراء بلا غطاء وبقليل من الملابس معرضين الى اشعة الشمس المحرقة. أما مؤونتهم ـ الضئيلة ـ فكانت خياراً وخبزاً

ناشفاً. ومع هذا فقد كانوا في راحة غير مضمونة فالجنود الاتراك استمروا في تخويفهم باشاعات عن هجوم قريب يقدمون فيه كلهم للسيف.

واذ ذاك اصبح عبد القادر نفسه مهدداً فبيته كان ممتلئاً بمئات اللاجئين من قناصل اوروبيين وسكان مسيحيين. ولما كان المحمديون محجوزين هكذا عن فريستهم فقد تقدموا نحوه مصرحين بأنهم يريدونهم ولما عرف البطل بهذه الحركة امر، بهدوء أن يسرج حصانه وتقلد درعه وخوذته ثم اعتلى الحصان شاهراً سيفه. فألتف اتباعه حوله وهم بقايا حرسه الاشداء ورفاقه في معارك النصر الهائلة ابطال الانتصار في المولايا (في ١٨ كانون الاول سنة ١٨٤٧ هاجم عبد القادر امبراطور مراكش على رأس جيش مؤلف من ٢٥٠٠ من فرسان ومشاة وانتصر عليهم وعددهم ٦٠٠٠٠ مقاتل في معركة وقعت على ضفاف نهر المولايا وظهر اذ ذاك المتعصبون فقفز الى وسطهم منفرداً وقال: «ايها الصعاليك ابهذه الطريقة تحفظون شرف النبي؟ لتقع لعنته عليكم! عار عليكم! واي عار! وستعيشون لتندموا. أنكم تعتقدون أنكم تفعلون ما تريدونه بالمسيحيين؟ ولكن يوم العقاب آت يوم يحول الفرنج جوامعكم الى كنائس. لن اسلم بأعطائكم مسيحياً واحداً أنهم اخواني تراجعوا أو امر رجالي فيطلقوا عليكم النار» وهكذا تفرق التجمع ولم يتجاسر واحد من مجموع المسلمين ان يرفع صوته أو يحرك يده ضد بطل الاسلام الشهير.

كان الذعر بين المسيحيين في جميع سوريا فوق الوصف ففي كل بلدة وقرية وفي كل مزرعة كانت هذه الرزية المحتمة منتظره وكان الجميع يرتجفون بانتظار نصيبهم. فقد كان المحمديون مميزين بشراستهم. فالجميع كانوا يعتقدون تقريباً أن السلطان اصدر امراً باستئصال الكفار. وكلهم كانوا على استعداد لينفذوا مشيئة الله في مثل هذه القضية المبهجة. وفي حلب افتدى المسيحيون عدداً كبيراً من الذبح بدفعهم مبالغ كبيرة من المال الى قادة الرعاع غير أن هؤلاء استمروا في عقد اجتماعاتهم وفي حادثة مفردة اطلقوا النار على افراد الشرطة وكان قيامهم منتظراً في كل لحضة.

وفي اورشليم كان، لحسن الحظ، زعماء المحمديين منقسمين الى احزاب فلم يكن بأمكانهم اخذ التدابير اللازمة للقيام بالتضامن، مع أن الافكار كانت مهيئة لذلك وفي فلسطين كلها قرى مسيحية برجالها ونسائها وصغارها قد اعتنقت الاسلام كبديل لموت محتم ـ ففي عكا كان الموظف المسؤول قد وزع كميات من الذخيرة على المحمديين، وعين

يوماً محدداً للقيام بذبح المسيحيين، غير أنه في صباح ذلك اليوم نفسه ظهرت فـــرقتان هولنديتان بالقرب من المدينة وكانتا السبب الفعال في عدم تنفيذها، وفي اجزاء سوريا كلها كان العثمانيون يقفون على حد قول الشاعر.

« مثل كلاب الصيد وقد تهيئت للانقضاض على الطريدة »

لمراقبة التضحية الدموية المقررة. كما وانه كان هناك ترقب لمصير بيروت، ولو أن ذلك حصل لكان تعالى الصوت الصارخ « المذبحة » « المذبحة » ليعم البلاد كلها طولا وعرضا ولأصبح العنصر المسيحي كله قرباناً على مذبح التضحية.

ولكنه في نهاية شهر حزيران كان هنالك اسطول من البواخر الحربية والبوارج وما في حراستها جاء من بلدان مختلفة؛ متلاحقة الواحدة بعد الاخرى لتقف على طول الشاطيء ومراقبة ما قد يجري. كانت الاساطيل الانكليزية والفـرنسيـة بـأمـرة الآميرالين مـارلين وموهاتس قد اتخذت مركزا لها خارج مرفأ بيروت في شهر تموز (يوليو) تلتها البعثة الحربية الفرنسية البرية بقيادة الجنرال بوفور ده أو تبول واخذت تنزل الى البر في السادس عشر من شهر آب (اغسطس) وهكذا ظهرت الاعلام الانكليزية ترفرف على سطح الماء، والبيارق العسكرية الفرنسية تتدفق كالامواج على التراب السوري، آنذاك تنفس المسيحيون الصعداء ـ وعادت اليهم الثقة بالنفس والامل واخذ الذين كانوا قـد هـربـوا الى شواطيء اخرى بالعودة ادراجهم لقد اصبح المستقبل، اخيراً، مضموناً ومكفولاً.

أما الماضي فأنكشف عن الآتي:

١١,٠٠٠ ذبيحاً مسيحياً.

٦٠٠,٠٠٠ ممن تأثروا بفظائع الحرب الاهلية.

٢٠,٠٠٠ارملة ويتيماً

٣,٠٠٠ منزلاً مهدمة للحضيض.

٤,٠٠٠ مسيحيا مجهولي المصير.

٢,٠٠٠,٠٠٠ ليرة من الممتلكات المتضررة.

هذه الفواجع المتراكمة كانت حصيلة ما ارتكبه الاتراك.

وفي الثالث من آب ١٨٦٠ عقد مؤتمر في باريس من ممثلين عن بريطانيا العظمى، والنمسا، وبروسيا، وروسيا، وتركيا، وصدر عنه بيانات وبروتوكولات موقعة منهم

الاول يحتوي على ست فقرات تتعلق بشروط التدخل المقترح للدول الاوروبية في سوريا. والثاني يحدد بصورة رسمية بالغة الدقة، ان الدول المتعاقدة لا تنوي العمل ولا تسعى الى العمل من خلال ما يناط بها من صلاحيات اجرائية او تنفيذية على الحصول على مكاسب لا على الأرض ولا في تأمين نفوذ اقليمي لها أو تحقيق مصالح تجارية لرعاياها، مما لا يمكن لرعايا أية من الدول الاخرى من دول العالم الحصول عليه ومع ذلك لا يمكنهم الامتناع عن مراعاة ما اتخذه السلطان من قرارات تبين ما للمادة الحادي عشرة من المعاهدة المؤرخة في الثلاثين مـن شهر اذار ١٨٥٦ مـن الاهميـة حيـث يبـدو واضحـاً مـا تعلقه دولهم من اهمية على تنفيذ الوعود المقدسة التي تعهد بها الباب العالي، بأنه يتحتم الأخذ بتدابير ادارية حـازمـة لتحسين اوضـاع الشعـب المسيحـي بمختلـف مـذاهبـه في الامبراطورية العثمانية.

وبحضور وموافقة والممثلين الخمسة للمسيحيين المجتمعين، من اجل الغاية الملحة وهي ايقاف اسالة الدم المسيحي في سوريا، الـذي يجري بتواطوء شرير من قبل موظفي السلطان، هذه الاهانة للعرف العام، وللشعور ومنطق المسيحية في اوروبا، تبدو وكأنها متعمدة.

ان الباب العالي بما لديه من سلطة مطلقة يأخذ علما بما في بيان ممثلي الدول المتعاقدة ويتعهد بتنفيذها في مؤسساته مؤكداً « أن الباب العالي قد استخدم ويستخدم كل ما لديه من وسائل وجهود في تحقيق الرغبة المبينة اعلاه » على هذا، يتوجب على كل بريطاني يحمل رأساً يفكر به وقلباً ينبض بالشعور، تابع ما ورد في الصفحات السابقة، أن يبني تفهمه وادراكه.

الفصل الثامن

السلام ـ ١٧ تموز سنة ١٨٦٠ فؤاد باشا ـ ١٦ آب وصول فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٠٠ جندي ـ المحاكمة المهزلة للسجناء الدروز ـ جرائم الاتراك وشراسة الدروز تبقيان بلا عقاب ـ ٥ حزيران سنة ١٨٦١ مغادرة الجيش الفرنسي.

الفصل الثامن

صرّح نجيب باشا، الذي كان قد عين حاكماً لبشالق دمشق عند ضم سوريا للسلطنة في ١٨٤٠، لأحد عناصر المخابرات السرية التابعة للقنصل البريطاني في تلك المدينة، دون أن يعرف حقيقة الشخصية التي كان يتحدث إليها بقوله: «إن الحكومة التركية لن تتمكن من تركيز سيطرتها على سوريا، إلا بعد قطع دابر المذاهب المسيحية» وقد ظهر أن ما صرح به نجيب باشا، نظرياً، قام خورشيد باشا، بعد فترة دامت عشرين سنة، بتطبيقه عملياً، ولو أن ذلك لم يكن إلى الحد الذي أراده نجيب باشا وخطّط له، ومما لا يدع مجالاً للشك بأن هذه كانت نوايا السلطات التركية في سوريا للوصول إلى أبعد ما يمكن من اجراءات الاستئصال. حتى أن الدروز لكونهم تغاضوا عن قتل العدد القليل من المسيحيين كانوا عرضة للوم المسؤولين.

ومما لا ريب فيه، أنه لو شئنا أن ننظر إلى الأمور من حيث وصلت إليه، من جهة أن الدروز والمسيحيين الذين اشتركوا في هذه المذابح نجوا من العقاب بالمعنى الصحيح، فيما لو قوبل بإساءاتهم وبالوسائل التي خدمت مصالح الباب العالي وسعى ليس للاكتفاء بما يخصه فحسب، بل ليحقق بصورة كاملة وشاملة وبأساليب منحطة يقوم بها عملاؤه، كل غاياته السياسية التي كان يرمي إليها فيما يتعلق بلبنان كما أنه يبدو وكأنه شيء عادي فيما لو كانت المسيحية قد سحقت بجذورها وفروعها واستؤصلت بصورة كاملة من سوريا. ولو أن كل مدينة وقرية ومزرعة في طول البلاد وعرضها من انطاكيا إلى غزة ومن المتوسط إلى الفرات كانت قد لطخت بالدم المسيحي فالأتراك (بالنسبة للأطماع والمفارقات والأهداف المادية التي للدول الأوروبية) كانوا في مركز البريء ولا تنسب إليهم الأحقاد الشديدة، بينما بقي الوضع القائم للسيادة والاستقلال في الامبراطورية التركية مستمراً باعتبارهم أبرياء وجديرين بالاحترام بعد كل ما جرى من مذابح.

وكما أن المجرم بعد التخلص من ضحيته يحفر حفرة يقذف إليها بالضحية ويهيل عليها التراب ليتناساها، هكذا فعل خورشيد باشا، وبينما كان الدم المسيحي الحار من أجسام الضحايا لا تزال ترتفع أبخرته إلى السماء، أصدر مذكرات للأمراء المسيحيين وللشيوخ، للحضور أمامه وأجبرهم على التوقيع بالموافقة على بنود مصالحة ترتكز إلى نسيان كامل للماضي، هذا نصها: «إنه اتفق وتقرر بعد الاتكال على الله أن يحقق السلام بموجب الشروط الآنفة الذكر وباعتبار أنّ كل ما مضى من بداية الحرب إلى تاريخه (تموز ١٨٦٠) غير قابل لأي ادعاء أو شكوى من أي من الطرفين، لا في الحاضر ولا في المستقبل». وهكذا كان المذهب المسيحي سيسحق بذبح الرجال وتعريض الأرامل والأيتام إلى التشرد والموت جوعاً بعد أن تنهب ممتلكاتهم وتحرق، دون أن يقال أي شيء عن كل ذلك.

هذا كان التخطيط التركي ومن المحتمل، أنه لو لم تنشأ ظروف تتعارض مع مثل هذا التدبير، لكان الأتراك تمكنوا من تنفيذه جزئياً أو كلياً وإلى أقصى الحدود، لأن الحكومة البريطانية، في هذا الوقت وافقت، إما لعدم معرفتها أو تظاهراً بالجهل التام، بتحرك المسؤولين الأتراك وبإبداء رغبتهم، بأن يُسمح لهم بأن يمارسوا عملهم ويتدبروا الأمور بأفضل ما يستطيعون في نطاق حكمهم في سوريا.

كانت أخبار هذه الأحداث التي تدمي القلوب قد وصلت وأثارت شعوراً عميقاً في أوروبا، وذلك عندما وقعت المأساة الفظيعة في دمشق وتعالت الأصوات مستجيرة بالصوت العالي تطلب الشفقة لهول ما يحدث. كثيرون اعتقدوا لسذاجتهم إذ ذاك أن أجراس الحزن في الامبراطورية العثمانية قد بدأت تدق. وبعض من الأتراك ذوي المكانة في القسطنطينية (بينهم أولئك الذين لم يكونوا على اطلاع على أسرار الأعمال الجهنمية) صرحوا لدى سماعهم بالخطر المحدق «لقد ضعنا» ولكن للأسف فإن هؤلاء الذين تحرقهم نيران شكوكهم ومخاوفهم كان عليهم أن يعرفوا مدى مرونة الدبلوماسية المسيحية.

إن مبدأ التصلب في كبت العواطف لدى الوزارة البريطانية تأثر أخيراً وصدر قبول ولو متأخر وبتردد للاقتراح الذي قدمه امبراطور فرنسا، بإرسال قوة إلى سوريا للمساعدة على تأمين الهدوء، وضمان سلامة المسيحيين، والإشراف على أعمال المحاكمة، والاقتصاص، بقي أن نعرف على الأخص طبيعة ومدى هذا الاقتصاص الذي نودي به

بصوت عادل وقوي في أوروبا وأن نعرف الأساليب التي استعملت بالتعويض على المسيحيين، ولو إلى حد ما، عن خسائرهم.

المبعوث الآتي عين وأرسل إلى سوريا من قبل الباب العالي بهدف تحقيق هذه الغايات المرجوة. كان المرسل كمبعوث فوق العادة من قبل الباب العالي هو فؤاد باشا الذي وصل إلى بيروت في ١٧ تموز ١٨٦٠.

وهكذا وصلت أيضاً فرقة فرنسية مؤلفة من ٧٠٠٠ رجل بقيادة الجنرال بوفور دوتبول إلى بيروت في ١٦ آب ١٨٦٠ أو حول هذا التاريخ. ووصلت بعثة أوروبية دولية مؤلفة من ممثلين عن خمس دول أخرى عقدت اجتماعها الأول في بيروت في ٥ تشرين الأول (أكتوبر) ١٨٦٠.

للإيضاح يحسن بنا أن نتتبع عمل هؤلاء المسؤولين بالترتيب. فبعد وصول فؤاد باشا بعدة أيام أرسل خورشيد باشا السفاح إلى اللاذقية بغية إبعاده من قبل المذكور. وذلك لدى عودته من حيث كان مقيماً لمزاولة أعماله أو مهماته في بيروت، كان ذلك بناء لاعتراض شديد اللهجة من الأميرال مارتن، لمنع مثل هذا الاجراء المعيب، وفي هذا ما يشير إلى قوة شخصية، وفكرية، وحزم، وشدة مما كان يتمتع به روحياً قادتنا البحريون، وهي وثيقة لا بد لي وأن أذكرها إظهاراً للنوعية التي بعثنا بها لمواجهة السلطات التركية سواء بالأمور الصغيرة أو الكبيرة.

فمما ورد في اعتراض الأميرال: «إن إساءة كبرى قد وقعت على العالم المتمدن من جراء الأعمال البربرية التي ارتُكبت ضد المسيحيين في سوريا.

إن السلطات التركية المحلية كانت أطراف مباشرة في هذه الأعمال الهمجية لسماحها للجنود بمساعدة السكان المسلمين والدروز، وبالاشتراك معهم، بعد التغلب على المسيحيين، بقتل الرجال وارتكاب الجرائم الفاحشة مع النساء والأولاد الإناث. إن العالم المسيحي لا يستطيع ولا يجوز له أن يترك مثل هذه الجرائم أو الفظائع غير معاقبة، وليكن محققاً ومؤكداً أنه لن يرضيه اتخاذ تدابير قاصرة عن أن تجعل تكرار مثل هذه الفظائع أمراً مستحيلاً».

«إن الحكومة التركية لن يكون لها الحق أن تطالب بإعادة الاعتبار إليها إذا لم تقم بتحقيق العدالة لأنه إذ ذاك يحتمل أن تخرج الأمور من يديها، حتى ولو كانت ستبدي

شيئاً ضئيلاً من التهاون.

وإذا كانوا يرغبون في تحاشي أي تدخل خارجي ليس من السهل تحديد عواقبه، فعليهم أن يكونوا صادقين بإعلانهم أنهم ككل دولة أخرى من العالم المتمدن يستنكرون الأعمال غير المشرفة التي ارتكبت في سوريا».

«وتصريحاتهم بهذا المعنى يجب أن يرافقها تصرف عادل نحو المتضررين ومعاقبة لا شك فيها للمسؤولين الأشرار».

«إن مجرد معاقبة الموظفين الصغار سيعتبر مخالفة كبيرة لا تعود بأية ضمانة في تأمين المستقبل.

«فالكبار الذين أساءوا إلى سلطتهم بالاشتراك أو بغض النظر عن المآسي الفظيعة التي تكومت على السكان المسيحيين في سوريا يجب أن يتحملوا نصيبهم من العقوبة.

«لقد بلغني أن سعادة خورشيد باشا سيعود إلى ممارسة مهماته في هذا البشالق. واني أجد نفسي مضطراً إلى اعلان رجائي بأن لا تكون هناك نية في السماح له للعودة إلى سلطة أساء استعمالها بل ينظر إلى الفظائع المخيفة التي يُعتقد أنه كان طرفاً فيها وإلى أهمية المسؤوليات التي أشترك أنا بها في ما يتعلق بسلامة السكان المسيحيين هنا، فإن من واجبي الاعتراض على السماح له بتولي سلطة يتوقف عليها سلامة العديدين ممن كان قد قابل ما جرى لهم باستخفاف وازدراء».

التوقيع

مارتن

صدر من على مارلبورو في بيروت في ٢٥ تموز ١٨٦٠.

بعد استلام فؤاد باشا لهذه الوثيقة بساعات قليلة جرى اعتقال خورشيد باشا وأودع السجن وهكذا كان مصير وكيله (الكيخيا) وإثنين من تابعيه. وهنا لا يصعب علينا تقدير الأثر البالغ الذي تركته هذه الوثيقة القوية اللهجة على ما جرى من تحقيقات في دمشق، تلك المدينة التي دخلها فؤاد باشا في ٢٩ تموز ١٨٦٠.

ليس هنالك من يقول ومع أنه لا حاجة لذكر التفاصيل التي اتخذها فؤاد باشا لتحقيق معاقبة المجرمين فربما كان في إيضاح هذه النتائج ما هو مفيد وذو معنى.

إن أحمد باشا حاكم دمشق وقائدها العسكري اتهم بشهادة أحد المسلمين المسمى صالح

ذكي بك (الذي تقدم بجرأة واتهمه بسوء استعمال وظيفته إلى حد بعيد وبأنه بسبب تقاعسه وجبنه حصلت المذبحة)، فقتل رمياً بالرصاص، وكذلك فان ثلاثة من الضباط الأتراك الذين كانوا حاضرين في مذبحة حاصبيا مع مئة وسبعة عشر من الأفراد (باش بزق، وشرطة، ومتجولون) لاقوا نفس المصير وأربع مائة تقريباً من رتب أقل، حكم عليهم بالسجن والنفي، وبلغ عدد الذين أعدموا شنقاً من المدنيين ستة وخمسين، أما عدد النبلاء الذين تم نفيهم إلى قبرص ورودس فبلغ أحد عشر صودرت في الوقت نفسه أملاكهم، ولكنها حفظت لصالح عائلاتهم. هؤلاء النبلاء يعيشون في أماكن نفيهم متمتعين بالرفاهية وكل مباهج الحياة، أحدهم أقام حفلة زواجه. وبلغ ما فرض على المدينة كعقوبة مالية ٢٠٠ ألف ليرة وهو مبلغ كان يستطيع ثلاثة أو أربعة من التجار المحمديين تسديده بمنتهى السهولة.

هذه العقوبات هي كل ما حصلت عليه أوروبا المسيحية كمقابل لإحراق ونهب وتهديم الحي المسيحي في دمشق الذي بلغت خسائره لا أقل من مليوني ليرة استرلينية (غير التصرفات اللاإنسانية والوحشية والذبح دونما مبرر لستة آلاف مسيحي عاجزين عن المقاومة ولا يمتلكون أي سلاح، واغتصاب نسائهم وبناتهم وتهجير عشرين ألف لا حول لهم ولا طول نتيجة تعصب المسلمين وغضبهم لأنهم كانوا على حد قول القنصل البريطاني من أتباع المسيح).

وفؤاد باشا لدى عودته إلى بيروت في ١٢ أيلول سبتمبر استدعى بعض شيوخ الدروز المرموقين ونبلاءهم للحضور أمامه. تحت طائلة حرمانهم من ألقابهم وامتيازاتهم ومصادرة أملاكهم في حالة التمنع. وقد لبى الدعوة أربعة عشر منهم، وامتنع ثلاثة وثلاثون فوقعت عليهم العقوبة بصورة غير محددة ودونما أية محاكمة، وأمام محكمة خاصة جرت محاكمة خورشيد باشا، وطاهر باشا، وبعض من ضباط الأتراك وسبعة من شيوخ الدروز لكونهم كانوا متهمين، أمام محكمة كانت قد التأمت لهذه الغاية. فالأتراك حكم عليهم بالسجن المؤبد وعلى الدروز حكم بالموت. ومثل هذه العقوبة كان قد حكم بها على عبد السلام بك، الكولونيل التركي سابقاً لكونه كان مترئساً للمذبحة التي جرت في دير القمر، وأربعة من الدروز جرموا لأنهم قاموا بقتل المسيحيين بأيديهم. غير أن العقوبة التي حكم بها على الدروز أنزلت فيما بعد إلى عقوبة بالسجن المؤبد.

«ولكن لم ينفذ في الواقع، أي من الأحكام المشار إليها لا بالموت ولا بالسجن المؤبد».

وفؤاد باشا وجه اهتمامه الآن لمعاقبة عامة الدروز، وعليه فقد جمع القساوسة المسيحيين وطلب منهم مساعدته على تحقيق اجراءات هي في منتهى الضرورة، وقد أخبرهم أن الجرائم التي ارتكبها الدروز ضد المسيحيين أصبحت معروفة للعالم كله. وأن الدم الذي سكب آنذاك يستوجب عقاباً دموياً، وأنهم يستطيعون الاعتماد عليه في تحقيق ذلك بمنتهى القسوة. وقد أجاب القساوسة بأنهم لا يستطيعون بصفتهم الدينية أن يتدخلوا في مثل هذه الاجراءات. لأنهم قد يعرضون على غير قصد منهم، أبرياء للموت. بيد أنهم يستطيعون أن يسموا لهم ممثلين من المسيحيين للتعاون معه فيما يقرره، وعلى هذا فقد تم تعيين ستة عشر ممثلاً. وبعد أن حدد لهم فؤاد باشا مهامهم الملحة ـ التي كانت الغاية الرئيسية منها إصراره بحزم على الثأر لما نال المسيحيين الضحايا، وأنهى بأن طلب إليهم تزويده بكشوفات بهؤلاء الدروز الذين عرف عنهم استعمال أقصى حدود الهمجية، وقد تعهد أن كل ما يجري بينه وبينهم يجب أن يبقى سراً دفيناً، وأوجب عليهم أن يقسموا على التوراة بحضور قساوستهم بأنهم سيقومون بتنفيذ المهمة الموكولة إليهم بإخلاص وضمير حي وسرية.

وبعد انقضاء مهلة شهر أو تزيد ـ قام أثناءها الممثلون بجمع المعلومات والتحقيقات الآيلة لذلك، في كافة النواحي والأماكن ولدى كل المسيحيين، رجالاً ونساءً ممن كان في استطاعتهم تزويدهم بالمعلومات التي يطلبونها ـ رفعوا لفؤاد باشا كشفاً يتضمن أسماء ٤٦٠٠ درزياً و ٣٦٠ محمدياً من السنة والشيعة، باعتبار أنهم جميعاً، على حد قولهم، شاركوا في المذابح. وكان الزمان والمكان وطبيعة الجريمة توضع أمام كل اسم على حدة.

وعلى الأثر تسربت شائعات وانتشرت على نطاق واسع، أن الممثلين المسيحيين يطالبون بـ ٤٦٠٠ رأساً من الدروز ـ وهو ما كان يريده الأتراك، إن لم يكن ما دبروه، لأنه يسرهم أن يضعوا المسيحيين أمام العالم الأوروبي في موقف ينزل عليهم السخط بدلاً من أن يجعلهم في موضع من يستحق الشفقة، وليس ما هو أكثر قبحاً وأشد تحايلاً، وحقارة ولؤماً، بل وأكثر احكاماً لضربة سياسية محكمة من هذه التي حصلت.. إذ لا ريب، أنه منذ هذا الوقت وكنتيجة استطرادية لاعلان مثل الافتراءات التي وجهت

إلى القساوسة والممثلين على السواء، انتشرت أخبار هذه الافتراءات في كل القارة الأوروبية، وعلى الخصوص في بريطانيا، حيث تحول الرأي العام لدى السياسيين والحكام والصحافيين وأصحاب الرأي إلى كره للمسيحيين السيئي الطالع، وإلى ذمهم، بينما أعلنوا تعاطفهم واستعدادهم للعمل على تقديم كل عون للدروز القتلة.

وقد احتج القساوسة بقوة على التهم التي وجهت إليهم. والممثلون صرحوا أنهم لم يقدموا كشوفاً بمن يتوجب اعدامهم، ولكن لمجرد إعطاء أسماء الدروز الذين تصرفوا بمنتهى البربرية، وانهم فعلوا ذلك بضمير حي، مقتنعين بأن ذلك هو غاية ما هو مطلوب منهم، وأنه لن يكون لهم دور آخر، وان المسؤولين الأتراك سيتصرفون بهذه الكشوفات بالطريقة التي يرون أنها الأنسب، لتحقيق العدالة. والكشوفات كانت مقسومة إلى فئات ثلاث:

الأولى: المحرضون، أكانوا ممن اشترك في المذابح أو لا.

الثانية: رؤساء العصابات الذين كانوا يرأسون القتلة، والنهابون، وحارقوا البيوت.

الثالثة: الأشخاص الذين يرفضهم الرأي العام لكونهم اقترفوا الجرائم الفظيعة، والذين أقدموا على ارتكاب جرائمهم في ظروف تضاعف من شناعة اعتداءاتهم.

وهكذا استدعى فؤاد باشا الممثلين وطلب إليهم اعادة النظر بالكشوفات وهذا كان ما قاموا به. وفي الكشوفات المصححة بلغ عدد اصحاب الفئة الأولى ١٢٠٠ رجلاً من أشد الدروز اجراماً. وكان الاعتقاد السائد عند المسيحيين أن الأجراء المنتظر هو أن يجري اعدام هؤلاء أل ١٢٠٠ جماعات جماعات، وفي المواقع التي حصلت فيها المذابح. وأن يرسل عدد من الآخرين البالغ عددهم ٣٤٠٠ درزياً إلى السجون والمنفى والخدمة في الجندية التركية. هذا كان التوقع لما يجب أن ينزل من عقوبات على اولئك المتوحشين الذين ارتكبوا هذه الفضائح الشنيعة.

وبعد استلام الجداول المصححة بقليل، جرت اعتقالات في وقت واحد بأماكن مختلفة طالت ١٥٠٠ درزياً من مختلف القرى. واعتقد المسيحيون على اثر ذلك أن العقوبات التي طال انتظارها ستنفذ. ولكن كم كانت دهشتهم عظيمة عندما وجدوا بعد أيام ثلاثة أن اكثر المساجين الدروز اطلق سراحهم، وهم من الذين وردت اسماؤهم في الجدول كأكثر المتهمين بربريه. لقد اطلق سراحهم دون اجراء أية تحقيقات معهم، وهكذا لم يبق

بين أيدي السلطة سوى ٨٠٠. وهذه الظواهر الراهنة هزت ثقتهم باخلاص الحكومة، وهو شعور كانت الحالات التالية تزيده التهاباً.

ففي ٨ كانون أول ديسمبر ـ قدم فؤاد باشا الى المختارة، وهي مركز رئيس في المقاطعة الدرزية، واقام محكمة خاصة لمحاكمة السجناء الدروز، وفي الوقت نفسه اصدر أوامره للممثلين المسيحيين بلحاقة، ولكن نظراً لأستيائهم من مظاهر التلاعب التي بدت واضحة، ولتطلعهم الى عدم جدوى الأجراءات التي ستتخذ لمعاقبة الدروز المسيئين، وهذا ما تعودوا الحصول عليه من فؤاد باشا، ثم بمقتضى ما جرى في تحقيق العدالة. فإن الممثلين اجمع رأيهم على الأمتناع عن الحضور، غير أنه اتخذت تدابير اقنعت ثمانية منهم بتلبية الدعوة.

ولدى عقد اجتماع خاص بين فؤاد باشا وبينهم وجه إليهم رغبته في أن يعطوه المعلومات التي تساعده على معاقبة السجناء الدروز كلاً بنسبة جريمته. وقد اجابوا على ذلك بأن كل ما لديهم من معلومات قد ورد ذكرها في الكشوفات المقدمة. وأنهم لايعتبرون انفسهم في موقف المحامي عن المجموع المسيحي الكبير. لأن هؤلاء وبالأخص الارامل الثكالى البائسات رفضن توكيل أي من الممثلين بكشف حالاتهم البائسة. وإنهم لذلك واستطرادا بأستطاعتهم أن يطرحوا الاسئلة التي توصلهم الى تحقيق العدالة. أو الى طلب تقديم الادلة الثبوتية في الحالات التي تستوجب ذلك، عند عدم حضور اصحاب الشكاوي.

وقد اجاب فؤاد باشا، إنه لم يقصد أن يلوم احداً، أو يشكك ولو لحظة واحدة في صحة ما جاء في الكشوفات ـ وأنه لا يريد أن يعتبرهم محامين عن المسيحيين ـ بل هو يعتبرهم رجالاً لهم احترامهم في مناطقهم، وعلى هذا يرجوهم أن يعطوه أية معلومات لديهم مما يثبت ادانة الدروز المعتقلين في السجون ولكن الممثلين اصروا على ما قدموه كما اضافوا أنهم يجب أن يعلنوا ما اكتشفوه من أن الوعد بالسرية الذي فرض عليهم قد نقض، بل أن الكشوفات التي قدموها نشرت في الجبل وزيادة على ذلك فإن عدداً من الدروز الذين وردت اسماؤهم واعتقلوا قد اخلي سبيلهم. وأن هذه الأمور وضعتهم في موضع المستاء.

وكان جواب فؤاد باشا، أن ذلك كان صحيحاً، وأن هذه الشخصيات اعتقلت

واخلي سبيلها، ولكن المسؤولية تقع على اولئك المسؤولين الذين انيط بهم امر القاء القبض على المظلومين. وأن اوامره ستصدر بالتحقيق الدقيق الحازم في ذلك ـ ثم احالهم على المحكمة حيث جرى عند تقديم انفسهم اليها ما جرى معهم عند فؤاد باشا من ضرورة اعطاء الاثباتات ضد الدروز المعتقلين في السجون وبالاسلوب نفسه صرحوا بعدم قدرتهم على تحقيق ذلك وعاد فؤاد باشا الى استدعائهم إليه ثانية، واخبرهم أنه لا لزوم لأن يكونوا غاضبين، فهو يعتبرهم قضاة محلفين، وهذا ما هو موجود في جميع الدول المتحضرة، وأنهم بمشاركته في هذه الأمور يتوصلون الى تحقيق العدالة وأنه لاهو ولا هم يحسن بهم أن يتسرعوا أو يتحيزوا وهنا طلب إليهم أن يختاروا من الجداول ٣٠٠ درزياً من ذوي السمعة السيئة من حيث توحشهم وبربريتهم وأن يكون في انزال العقوبة بهم ما يرهب الآخرينَ ويخيفهم.

وقد اجاب الممثلون أنه يوجد بين المسيحيين من بلغت خسائرهم حداً بعيداً ومؤلماً، والذين هي مطالبهم بتعويض هذه الخسائر ملحة (فبعضهم فقدوا عدداً كبيراً من الأهل يزيد على خمسة أو خمسة عشر ضحية) وأنه سيكون من المستحيل عليهم اختيار مثل هذا العدد بما ينطبق على الحقيقة ويراعى فيه الصدق، إلا اذا سمح لهم بالعودة الى بيروت ثانية ليقوموا بأبحاث جديدة. وأجابهم فؤاد باشا بأنه يمكنهم أن يرسلوا بطلب المسيحيين الذين يودون التحقيق معهم، وقد اجاب الممثلون على ذلك بقولهم «ولكنهم كثر وأن احضارهم سيكون صعباً وغير مريح. وهنا رد عليهم فؤاد باشا بقوله «اني الاحظ أن اجوبتكم يقصد بها التمويه، وهذا يدل على أنكم لا تريدون أن تقبلوا ما اطلبه منكم أما بخصوص السماح لكم بالذهاب للحصول على معلومات تتعلق بالدروز الذين عرف عنهم الأجرام فهذا لا استطيع الموافقة عليه، لأنه يستغرق وقتاً طويلاً وأنا انما اقمت محكمة هنا بقصد اجراء محاكمة سريعة ومختصرة واذا كان لديكم شكوى من أي نوع ذات قيمة ثبوتية فسيسرني الاستماع إليها ـ أما اذا لم يكن لديكم شيء من ذلك ولكنكم تصرون على الرفض فيمكنكم الانصراف ـ ولكن احذركم أنه بعد انصرافكم من هنا لن تقبل أية شكوى ضد درزي لا من رجل ولا من امرأة ولا من ولد من المسيحيين».

وهكذا انصرف الممثلون. وفي اليوم التالي تم الافراج عن ٥٠٠ مسجوناً درزياً اضافة إلى ثلاثين متوالياً من اكثر القتلة اجراماً. واعطي لكل منهم وثيقة تمنحه البراءة من

كل ما قد ينسب اليه من اتهامات، وبعد وقت قليل استدعي ٢٤٠ درزياً إلى طرابلس الغرب لمدة طويلة أو قصيرة من النفي، مع تعليمات بأن يعاملوا معاملة حسنة وهكذا - اخذت العقوبات العظمى التي كان المفروض أن تنزل على الدروز تتناقص ثم تتلاشى وعلى حد قول الشاعر:

« كانت كنسيج الاوهام تمضي دون أن تترك وراءها اثراً »

ومن الصعب أن نقدر كيف كان يمكن لممثلي المسيحيين أن يتصرفوا خلاف ما قاموا به. فلو أنهم نزلوا عند ما طلب منهم في المختارة لكانوا وضعوا انفسهم في موقف الخطأ وتحملوا مسؤولية لم يكونوا تحت أية اعتبارات قادرين على تحملها، كأن يكونوا قد قبلوا بالتسويات والتنازلات، أن لم نقل قاموا بالتضحية الكاملة بمصالح وحقوق المجموع المسيحي بكامله.

هذه الحقوق البينة التي هي فوق كل تساؤل. اكان بشأن عقوبة دموية تنزل على رؤوس اولئك الذين اباحوا الدم المسيحي اذ كان هناك عشرات من الدروز المجرمين الذين ظهرت اسماؤهم في الكشوفات من الذين جرى اعتقالهم أو لم يعتقلوا كما كان هنالك عشرات من الذين اعتقلوا تم اخلي سبيلهم.

أم بشأن العدد الذي تقلص الى ٣٠٠ درزي مجرم، الذين كانت اجراءات العدالة ستطالهم فهو في الدرجة الأولى ليس بالعدد الذي كان في حسابهم أن يحاكموه ويعاقبوه ازاء ما وقع من جرائم، والذي كان فؤاد باشا قد دعاهم للقبول به - كما وانهم من ناحية ثانية كانوا يعرفون جيداً ويقدرون نوعية العدالة التي يمكن ان تحققها لهم محكمة المختارة (حتى ولو أن الممثلين وضعوا كشفاً بهؤلاء الثلاثمائة؛ التي ستخضع الى تحقيقات دقيقة وصارمة) وهذه مسطرة من وقائع المحاكمة التي جرت أمام المحكمة، (فإن امرأة مسيحية قدمت شاهدين اثنين للشهادة ضد درزي قتل زوجها عندما فتحت معه التحقيقات المثيرة الآتية التي تجعل من مثل هذه المحاكمة مهزلة. « السؤال - ما هي الالة التي استعملها السجين لقتل زوجك؟ هل هي السيف أم البندقية؟ وهل كانت بندقية مزدوجة أم مفردة؟ واين استقرت الرصاصة؟ في الصدر أم في الخاصرة؟ وهل نفذت الرصاصة من الجسد أم استقرت فيه؟ وهل سقط على ظهره أم على وجهه؟ »).

واذا كان هذا هو نوع الأسئلة بشأن هذه الحالة، وكان المطلوب الحصول على اجوبة

مقنعة، فهل يمكن اثبات جرم ما على أي درزي؟ غير أن المرأة استدارت اخيراً بأشمئزاز لمواجهة القاضي بعنفوان فوجهت اليه وهي تبدي الامتعاض قولها: « لقد نسيت يا سيدي أن تطرح سؤالاً آخر هاماً، وهو هل أن زوجي ذهب إلى الجنة أم إلى النار »

ففي الواقع ان الممثلين المسيحيين شعروا أنهم موضوع سخرية وأنه ليست هنالك رغبة لأعطاء المسيحيين المساكين البائسين أية عدالة لشكاويهم، وعلى هذا قرروا أن يغسلوا ايديهم من مثل هذه الاجراءات المعيبة، ووضع قضية المسيحية المظلومة بين يدي رب يصغي الى نواح الثاكلات المرملات والبائسين؛ اليس هو الذي يقول: « أنا العقاب وكل سيجزى بعمله ».

وفي السادس عشر من شهر آب اغسطس، سنة ١٨٦٠ نزلت الى البر الجيوش الفرنسية وهي تنشد الأناشيد الحربية ضد الدروز متوقعين أن يشاركوا في حماية المسيحيين التعساء والثأر لهم. وبعد توقفهم مدة شهر تقريباً في حرش الصنوبر في بيروت سمح لهم بالتحرك - كانت المهمة الرئيسية القاء القبض على الدروز كخطوة أولى لانزال العقوبة المحقة بهم - وقد اشار تقرير إلى أن الجيوش التركية كانت قد احكمت الطوق عسكرياً على السفوح بين لبنان وحوران لتمنع انسحابهم بذلك الاتجاه، وأنه تقرر أن تتقدم الجيوش الفرنسية من الغرب في لبنان أو من الشاطيء اذ كان كل ما هو مطلوب حصر الدروز ضمن دائرة لا يمكنهم الخروج منها على حد تقدير الخبراء - وفي ٢٤ ايلول سبتمبر صعد فؤاد باشا من صيدا باتجاه الجبل الدرزي. وتقدم الجنرال دوتبول الفرنسي على رأس جيوشه التي قسمها الى فرقتين كل منها ٢٠٠٠ جندياً بنفس الوقت من بيروت وعلى خط مواز للجيش الذي يقوده فؤاد باشا.

ومشى في خطوات الفرنسيين مئات من المسيحيين الذين قاموا ببعض التجاوزات. أنهم وجدوا انفسهم في حالة قصوى من الغيظ الذي لا يعرف حدوداً لما ارتكبه الدروز من فظاعات وسفك دماء دون مبرر فذبحوا على ما يقال مائة من الدروز بين شيوخ ونساء واطفال، وهذه الأعمال ارتكبت خارج نطاق الفريق الفرنسي ولم تثر أي اهتمام ساعة وقوعها، ومع أن الجنرال دوتبول لم تكن لديه أية سلطة تنفيذية في لبنان فإنه، مع ذلك، كان عندما تُقدم له شكوى ضد أي مسيحي أتهم ولو بسرقة يأخذ الأمر بحزم وشدة.

وكثيرون من المسيحيين الذين قدم الدروز شكاوي بحقهم تعرضوا لعقوبة الجلد حتى على

مخالفة سرقة ضئيلة. فالاخلاقية الفرتسية في الجيش كانت مثالية لحفظ النظام ولكنها لم تكن في محلها بالنسبة للتعامل مع المسيحيين.

وبعد أيام قليلة من التقدم عبر الجبال وصل الفرنسيون والاتراك إلى سهل البقاع وكان تلاقيهم في قرية جب جنين على قدم سلسلة لبنان الغربية: وهناك بدا لهم أنه كانت هناك فتحة لم يحسب لها الجيش التركي حساباً في الطوق المضروب لمنع تراجع الدروز فاستطاع عدد من الشيوخ الدروز و ٢٠٠٠ من أتباعهم العبور منها بسلام الى حوران وقد حاول فؤاد باشا تهدئة خاطر الجنرال دوتبول على هذا الخطأ غير المقصود، معلقاً بمنتهى التهذيب والعبارات المنتقاة، أن اجراءات ملائمة قد اتخذت للقبض على المخالفين، وانهى كلامه بأن طلب إليه العودة نزولاً إلى لبنان، والجنرال دوتبول أمام هذه الخديعة بدا مرتبكاً ومنزعجاً لهذه النهاية غير المجدية في حركته التضامنية، وقد ابدى ملاحظاته على كل ذلك بعباراة قاسية. ولكنه لما كان يعمل تحت قيادة فؤاد باشا وبناء لأوامره فلم يكن لديه إلا قبول دعوة زميله ثم وداعه والعودة من حيث اتى.

منذ ذلك التاريخ عسكر الفرنسيون في قرى المسيحيين في الجبال ولكن بدون القاء سيوفهم كلياً فقاموا بالعمل في البناء والنجارة، والزراعة، لمساعدة المسيحيين على بناء اكواخهم ثانية. بينما كان القسم الاكبر منهم يصرف الوقت لاهياً يدّخن الغليون ـ وهكذا كان عليهم جميعاً أن يكونوا عديمي الانتاج متفرجين على ما خلفته فضائح الدروز التي بقيت دون ان ينالها عقاب أو يثأر لها وقد صرف الجنرال دوتبول الاشهر السبعة الباقية في بيروت يقطع وقته الممل بالانتقال في نزهة الى الجبال احياناً ولكن ليس دون أن يتعرض رجاله لأهانات يوجهها اليهم المحمديون دون أن يلاقوا قصاصاً أو عقاباً.

واخيراً جاء اليوم الذي لم يكن من مجيئه بد، فشمس الخامس من حزيران سنة ١٨٦١ اشرقت على العلم المثلث الألوان زاهية ساطعة ولكن لتلقي اشعتها البراقة على ما ناله من اذلال، أن الزواف الشجعان عادوا إلى سفنهم متسترين بظلام الليل خلسة، بينما كان الشعور بالاشفاق يتأجج في كل الصدور على هذا التراجع المثير للشفقة لحرس متقدم لدى امة عظيمة. كان هؤلاء طليعة المتقهقرين.

ففي اليوم الثامن منه تراجعت فرقتان باتجاه الشاطىء في وضح النهار على انغام موسيقى الجيش لتغطية ذلك الشعور بالخيبة الذي نادراً ما شعر به الجنود الفرنسيون في ممارساتهم

الحربية كان الجو حاراً ورطباً والضباط كما الجنود حاولوا دون جدوى أن يسيروا مرفوعي الرؤوس. مظهرين ارتياحهم. وحتى بيارقهم كانت لا تخفق بل تبدو منكسة مهانة.

هذه كانت نهاية الاحتلال الفرنسي. غير أنه مما لا ينكر، أن الحملة الفرنسية الى سوريا تركت وراءها سمعة حسنة؟ أنها خلقت شعوراً عاماً بين المسيحيين بأمان بينما اضعفت في المحمديين روح التعصب، فإن مجرد ظهور الجنود الفرنسيين في المقاطعات اللبنانية اثار الخوف عند الدروز وجعلهم يهربون الى جميع الجهات. فالشيوخ وجدوا مخابيء لهم في الاحراش والكهوف، بينما سعت نساؤهم إلى ايجاد مأوى وحماية عند المسيحيين. وهي حالة استمرت مدة شهرين أو تزيد، وقد تبين للدروز مع ذلك أن الفرنسيين لم يأتوا لأبادتهم، بل بالعكس عاملوهم بطول أناة بل زيادة على ذلك أوجدوا لديهم شعوراً بالثقة بحسن نواياهم مما جعلهم يرجعون من مخابئهم الى منازلهم مطمئنين.

أما القول أن الفرنسيين لم يكن لمجيئهم من فائدة، على الأخص فيما يتعلق بألقاء القبض على المسيئين من الدروز، فهو قول مردود إلى ما كان من شعور بالحسد أكان من الاتراك أو من البريطانيين لاختيارهم لهذه المهمة. أذ لم يكن قد مرَّ على وجودهم في سورية أكثر من شهرين عندما صدر بيان من جلالة ملكة بريطانيا تعلن فيه أن هنالك معارضة شديدة لأحتلال طالت مدته وأنه من الأفضل وضع مهمة حفظ السلام في البلاد بيد المسؤولين الاتراك، مشيرة بما يثير الدهشة، إلى أنه لا يمكن تأمين الامن والسلامة العامة، ما دامت المنازعات بين الدروز والمسيحيين قائمة، وأنه ما دام هنالك وجود لهذين الشعبين فلن يكون بالأمكان التوصل إلى سلام دائم ـ والحكومة التركية أمام هذا لم تتباطأ في محاولة ابطال مفعول العنصر المتدخل، أكان برفض مكشوف للمقترحات، المقدمة من الجنرال الفرنسي بايجاد تعاون فعال وتعاضد، أو باللجوء إلى التحايل والتقاعس مما جعل التعاون امراً مستحيلاً.

ومما يؤسف له اشد الاسف أن يظهر مثل هذا الشعور ليحول دون تحقيق العناية من مجيء هذه البعثة التي كان مقدراً لها أن تقدم خدمة كبيرة لقضية انسانية عادلة. ولو ان الحكومة البريطانية كانت قد تغلبت على ما تمسكت به من سوء ظن عند المسيحيين لم يكن مبنياً على اساس صحيح لكانت مضت في العمل على تحقيق العقاب، الذي كان في اقصى

درجة من الاهمية لأولئك الذين انتهكوا كرامة المسيحية بقسوتهم وفظاعاتهم، باعطائهم التأييد القوي والمساعدة الحازمة للتدخل الفرنسي - ولو أن ذلك حصل لكان المسؤولون الاتراك في سوريا انتهجوا دون ريب نهجاً مختلفاً عن الذي اتخذوه ولكان باستطاعتهم التدخل إلى نتائج افضل من تلك التي حققوها، وَلو أن مثل هذا الشعور كان موجوداً لما طلب من الجنرال دوبتول بعد قيامه بتلك النزهة غير المثمرة في جبال الدروز في شهر ايلول سبتمبر ١٨٦٠ أن ينزل من الجبال «جبال لبنان» ولكان حصل اصرار على القيام بحركة التفاف حاسمة حققت الهجوم على الدروز وحصارهم ثم اخضاعهم لمحاكمات ميدانية في عقر دارهم، لأن اولئك المحرضين والمشاركين في المذابح «البرابرة» من الدروز ومن بينهم زعماء ذوو نفوذ يزيد عددهم على ٢٠٠٠ رجل استطاعوا أن ينسحبوا إلى حوران، على مسافة اربعة ايام فقط من لبنان.

ولو أن فؤاد باشا جعل اقامته في مدينة دمشق ومن هناك جهز حملة تتقدم الى حوران لكانت نتائجها بالنسبة للحسابات الحربية مؤكده ومضمونه لقد كانت الظروف مؤاتيه فقبائل البدو، التي هي على عداء دائم مع الدروز في تلك المنطقة كانت مهيأة للقيام بأية مساعدة ضدهم خصوصاً في تلك الفرصة السانحة اذ كانوا يمنحون هبات ورشاوٍ سخية. بالاضافة إلى أن الجيش التركي والفرنسي كان كل منهما مؤلفاً من ٥٠٠٠ عنصر بكامل سلاحهم وخيولهم ومدافعهم وعلى رأسهم ضباط ذوو خبرة مثل الجنرالين دوتبـول وكنتي. يتقدمان متعاونين الى حوران، واذا اقتضى الأمر الى قلب اللجاه، المعقل الحصين عند الدروز، مما يجعل العصاة الدروز والقتلة لا يجدون بديلاً عن الموت سوى الاستسلام ولكان تحقق انزال القصاص على الاثمين الاشرار بما يحقق العدالة باقصى معانيها ويحفظ الكرامة الاوروبية ومقامها السامي، وتكون اذ ذاك اكبر هدية يمكن تقديمها للباب العالي ولبريطانيا بجعل مدة الاحتلال الفرنسي قصيرة الامد بدلاً من أن تطول.

★ بعد كتابة هذا الفصل جرى تسليم بعض المعتقلين إلى القسطنطينية ولكن دون أن يكون بأمكان أي انسان أن يتصور انزال أية عقوبات بهم.

الفصل التاسع

٥ تشرين اول اكتوبر ١٨٦٠ إلى ٥ اذار مارس ١٨٦١ اجتماعات للمبعوثين الاوروبيين دون نتائج مثمرة - اللورد دوفرين وجهوده النبيلة - ذبح ٥٠٠٠ شخصا بقي بلا عقاب - انتصار الخداع التركي - التماس العدالة من مسيحي اوروبا.

الفصل التاسع

اتفقت الوزارتان البريطانية والفرنسية، على اقتراح هذه الاخيرة، بالطلب من الحكومة التركية إرسال بعثة من قبل الباب العالي ومن الدول الكبرى، الى لبنان بهدف اجراء تحقيق فيما جرى من اعمال عنف في تلك المنطقة، كان من مهمة هذه البعثة ان تقوم بتحديد مسؤولية الاشخاص الذين كانت لهم علاقة بالحوادث، وان تبحث بما يمكن فرضه من عقوبات، وتخصيصه من تعويضات، ثم في النهاية رفع تقرير بذلك الى السلطان، تبين فيه افضل ما يمكن أن يتخذ من تدابير تكون كفيلة بالحيلولة دون حصول مآسي اخرى شبيهة بها في المستقبل.

والباب العالي كان قد وافق على مبدأ التدخل الاوروبي بالشؤون اللبنانية ومع أنه، كما هو طبيعي ومعقول، كان يفضل التفرد بالعمل بالشؤون القضائية في المنطقة التي وقعت فيها الاضطرابات، فهو مع ذلك، بعد أن صدر القرار لم يبق له الا القبول، ممنياً نفسه بالأمل في أن يتمكن من ممارسة مداوراته، مما يتيح له تحويل البعثة عن غاياتها. ولو ظهر أن اجراءات البعثة كانت غير مرضية للباب العالي فسيكون بامكانه شل حركتها باستخدام اساليب مغايرة، تؤدي الى الايقاع بينها، وبذلك يتمكن من جعلها كبش فداء نظراً لقصر نظرها، وتحت هذه التأثيرات عقدت البعثة الدولية الاوروبية الى سورية اجتماعها الاول في بيروت في الخامس من تشرين اول، اكتوبر، سنة ١٨٦٠. ومن المضحك، اذا جاز القول، الأخذ بذلك المبدأ المشهور «عدم التدخل» إن من قال به أو اقنع الحكومة لبريطانية باعتناقه، يجب أن يعتبر مسؤولاً من الفئة الأولى، من المآسي التي وقعت في سورية في الفترة الاخيرة.

اذ لو ان الحكومة البريطانية، كانت قد تدخلت، في السنوات الثلاث السابقة، في الشؤون اللبنانية، كما كان يجب عليها أن تفعل، وهو ما كانت مرتبطة به من حيث

المبدأ، والواجب والشعور بالكرامة، فكانت استطاعت ان تعمل ما لا تستطيعه آية دولة اوروبية اخرى لأن هذا ما اخذته على عاتقها في سنة ١٨٤٠ (ايام ابراهيم باشا) وهو أن تضمن للبنان سلامته، وكرامته، ولو أنها أخذت بعين الاعتبار الافادة من المعلومات القيمة التي كانت تقدم لها باستمرار خلال تلك الحقبة بواسطة مسؤوليها القنصليين، ولو اولت الانذارات التي كانوا يقدمونها لها على التوالي بدقة، ولو أنها كانت تلح بتركيز واصرار شديدين، على الباب العالي، بأبعاد اولئك الموظفين الاتراك الذين كانت اعمالهم السابقة قد اوضحت بأنها تقود، دونما ريب، الى اسقاط لبنان في مهاوي الفوضى والاضطرابات، لكانت تفادت كل الذي حصل، بيد أنها بدلاً من ذلك قامت بمساندة عهد جديد من القوة والاستقلال للامبراطورية العثمانية، بفرض مبدأ «عدم التدخل» مما جعلها تغرق في دوامة التساهل، وعدم الاهتمام، بايجاد وضع لائق لمنطقة هامة، فلا تستفيق الا على الشعور بعبء ما جرته اهوال الحرب، ومآسي المذابح.

امتدت اعمال البعثة مدة خمسة اشهر، وكان آخر اجتماعاتها في الخامس من آذار، مارس، سنة ١٨٦١، (كان اعضاء هذه البعثة يمثلون ست دول وعددهم سبعة هم: فؤاد باشا عن تركيا - اللورد دوفراين وكلانبوي عن انكلتره - والمسيو ريشارد عن فرنسا- وبوفيكوف عن روسيا ووكيكر عن النمسا وروفس عن بروسيا) في هذا الوقت اهتمت هذه البعثة، بحدود ما تسمح به صلاحيتها، بالشؤون العامة، مما يؤدي إلى اعادة التنظيم، محاولة اعادة المسيحيين المهجرين الى مناطقهم، وبناء منازلهم المدمرة، وتحديد مبالغ التعويضات عليهم، وإلى مراقبة الاجراءات القمعية ضد المسؤولين من الاتراك، والدروز، الذين نسبت اليهم الأعمال الاجرامية؛ واخيراً وضع تصميم لحكومة لبنانية يمكنها أن تقدم لرعاياها السلام، والنظام، والأمن وهي امور كانوا يطالبون بها منذ عشرين سنة باستمرار.

وأنه لمن غير المفيد، أن نحاول وصف البؤس المميت والمعاناة القاسية، التي في وقت ما، تراكمت على الارامل المفجوعات، والأيتام البائسين الذين تدفقوا هاربين من هول المجازر، الى بيروت وصيدا، بينما كان الدروز يقهقهون ضاحكين على بؤسهم، شامتين بما حلّ بهم من مصائب، قائلين لهم بقسوة، أنهم أنما تركوهم احياء، لتتقطع قلوبهم وتدمى؛ أما الاتراك فبعد أن حققوا غاياتهم انسحبوا بدهاء من مسرح البؤس، حيث كان شبح

الموت يخيم على اولئك البؤساء المطرودين، الذين كانوا، لو لم تمتد لغوثهم يد رحيمة، هلكوا بالآلاف من الموت جوعاً. لتبق هذه الحقائق المؤلمة، ماثلة امامنا، كلما مرّ في مخيلتنا ذكر اولئك المحرضين على انزال مثل هذا البؤس في المسيحية بقسوة لا يمكن ان تُنسى، أن المعونات الخيرية، لحسن الحظ تدفقت من أوروبا، عندما وصلت الاخبار الأولى عن المأساة المضجعة، خصوصاً من فرنسا، ومن انكلترة، وكذلك من امريكا، وتدفقت كالجداول لتروي البائسين، وتغطي مشاهد التدمير والخراب. على الأثر تشكلت هيئة امريكية وانكليزية، لتتولى مهمات الانفاق والتوزيع، وادارة كافة الاعتمادات الآيلة الى تخفيف المآسي. وقد استطاعت بعملها الدائب وقدرتها الادارية قطع دابر البؤس، اذ كان لديها كشوفات باسماء البائسين والمفجوعين من مختلف القرى، والمناطق، وكانت المساعدات التي تعطى هي بمعدل شلنين لكل فرد، مع كميات من الطحين والملابس، توزع على الافراد، وفي الوقت نفسه أُنشئت مستشفيات. واتخذت كل التدابير الممكنة لرفع شبح البؤس. وكذلك فالمسؤولون من الاتراك ساهموا من جهتهم بتقديم مساعدات ولكن. كم كانت مساعداتهم هذه ضئيلة بالنسبة للمتطلبات الراهنة!! اذ يمكن الحكم على ضآلتها، بواقع أنه في شهر تشرين الثاني، نوفمبر، تضاءلت اعتماداتهم لدرجة كبيرة، وكادت أن تكون التخصيصات اليومية التي كانوا يقدمونها، قد انقطعت أو توقفت، لو لم يبادر اللورد دوفراين، بتصرّفه النبيل، ويمنحهم سلفة من جيبه الخاص بمبلغ ٥٠٠٠ ليرة، ينقذ بها اولئك الذين كانوا يعتمدون على تلك المساعدات التركية للنجاة من الموت جوعاً، وقد وجهت البعثة اهتمامها في الدرجة الاولى الى مسألة التعويض على المسيحيين الذين اذا اضفت خسائرهم في دمشق الى خسائرهم في لبنان والبلاد المحيطة به، لقُدرّت بمبلغ ثلاث ملايين ليرة استرلينية، على وجه التقريب. في كانون أول ديسمبر سنة ١٨٦٠ انتقلت الهيئة الى مدينة دمشق لتكوّن لها رأياً بمدى ما حصل من تخريب، ولدى عودتها الى بيروت، شغلت نفسها بحساب المبالغ المطلوب جبايتها من غير المسيحيين، من اولئك الذين تورطوا بأعمال النهب والقتل، ولاتخاذ افضل التدابير لوضع هذه الخطة موضع العمل - فقدرّت خسائر المسيحيين في دمشق وحدها، كتقدير أولي، بمليون وربع المليون ليرة، ولكن هذا التقدير أو التخمين أنقص إلى ٧٠٠ ألف ليرة، ذلك كحد أدنى، (الموجوهرات بأثمانها الباهظة لم تدخل بالتخمين) وقد تقرر

أن يجمع المبلغ من المحمديين في ذلك البشالق ـ وكانت البعثة قد اقترحت فرض ضريبة على الدروز غير أنه لم يؤخذ بهذا الاقتراح وصرف النظر عنه .

ومع هذا ، فبعد كل المحاولات التي كان من الممكن اتخاذها لجمع المبلغ المطلوب ، تبين وجود عجز كبير ، كان مطلوباً تأمينه ؛ قد كان بأمكان المجتمعين ، دونما ريب ،أن يجدوا طريقهم الى نتيجة ملموسة ، أو على كل حال يتوصلوا أخيراً الى أخذ تدابير ، من شأنها أن تكون قد وفرت للمسيحيين البؤساء فرصة الحصول على ما هو من حقهم من تعويضات معقولة ، غير انه لدهشتهم ، أن فؤاد باشا ابلغهم عند نهاية الجلسة الخامسة عشرة أن كل ما يتعلق بالتعويضات قد رفع الى القسطنطينية ، مصرحاً بأن حكومته تحتفظ لنفسها بحق التقرير في كيفية تعيين مبالغ التعويضات ودفعها ، وكذلك في وضع ما يتوجب من قوانين يتم بموجبها تأمين المال. وهكذا فإن هذه المسألة الهامة التي كان يتوقف عليها مستقبل بقاء الآلاف من المسيحيين احياء ، أُخذت بسهولة من ايدي اولئك الرجال الذين كان مجرد وجودهم سيجعل منهم خير حكم في ما يمكن أن تحققه مثل هذه التدابير ، هؤلاء الذين كان يجب ان يبقى امر التصرف بالتعويضات من شأنهم، والذين كان من المفترض أن تكون قراراتهم بشأن كل تعويض، نهائية، وغير قابلة للاعتراض، أجل هؤلاء المبعوثين وحدهم كان يجب أن تكون لديهم كل السلطات في توزيع التعويضات، لأن المسؤولين الاتراك، وهم المسببون لهذه المآسي، لن يعيروا أي اهتمام لما قد يصيب البائسين. وأنهم اذا تركت لتقديراتهم فإنهم سيحاولون تخفيض قيمة المساعدة الى ادنى مبلغ ممكن، ولما كان قد تحقق امر تحويل المساعدات برمتها الى الباب العالي، حيث سيجري بحكم العادة النظر اليها بعين التحيز، بعيداً عن تفهم الحقائق، ويفصل بها، اذا كانت هنالك رغبة في الوصول الى نتيجة، على اساس جعلها تعويضات سخية لا شحيحة، لا تفي بالمطلوب.

وانه لأمر معجب، أن المبعوثين لم يرفضوا الخضوع بغباء لمثل هذا التعطيل المعيب لصلاحياتهم التي لا شبهة فيها، ولم يطالبوا، برغبة وتصميم وحزم، بالرجوع الى حكوماتهم، بقصد الحصول على تعليمات جديدة، حول مثل هذا الامر، والواقع أنه كان هنالك سبيل واحد، وهو وضع تقرير يبين الحد الاعلى من التعويضات المطلوبة، والتي هي من حق المسيحيين الحصول عليها ـ ثم أن يبين بصورة قاطعة أن الوسيلة الممكنة للحصول على

هذه التعويضات هي واحدة لا اثنتين، أن تقدم الدول العظمى كامل المبلغ كسلفة الى الحكومة التركية، ثم تجبرها في الوقت نفسه على فرض ضرائب اضافية على السوريين لتكون الفرصة متاحة لتسديد هذه السلفة دونما تأخير .

ولكن، بدلاً من اتخاذ هذه الخطوة النهائية الحازمة، فإن المبعوث الفرنسي، معبراً عن شعور زملائه، اظهر استغرابه وأسفه العميقين لهذا القرار، الذي من المؤكد أنه سيسبب تأخيراً في التنفيذ، تنفيذ التدابير التي اتخذها جميع اعضاء البعثة متفقين بشأنها، ومعتبرينها «امرا بالغ الأهمية» أما النتيجة فكانت ما يمكن حتى لمراهق صغير أن يتنبأ به ـ اذ بعد انقضاء شهرين، أبلغ المبعوث التركي البعثة، أن الباب العالي، نظراً لضآلة موارده لا يستطيع أن يدفع للمسيحيين في دمشق أكثر من ثلاثمائة وخمسين الف ليرة، وأنه حتى هذا المبلغ، لا يمكن دفعه إلا على اقساط ستة، وفي مهلة أقلها ثلاث سنوات ـ انه من المشكوك فيه أن يكون بالامكان رتق هذا الفتق، اذ أن فرص التحايل بتوزيع المبالغ التي تجمع على شكل رشاوٍ للمسيحيين متاحة وأنهم بذلك يورطونهم بهذه السرقة الجائرة، ويتواطأون معاً على انتهاك روح العدالة والمساواة. فرؤساء الاكليروس وبعضٌ من الوجهاء الذين هم تحت نفوذ مباشر للدولة، تسلموا تعويضاتهم كاملة، ووضعوا اختامهم وتواقيعهم في المقابل على عرائض تثبت أن العدالة أخذت مجراها على اكمل وجه وبعد انتظار سنة تقريباً، أُعطي التجار والحرفيون الذين يكسبون قوتهم اليومي فقط بعرق جبينهم ومن اليد إلى الفم. وكذلك أُعطيت الارامل البائسات، وأُعطيَ الايتام الذين ليست لهم أية موارد يعتمدون عليها، سندات بالمطلوب لهم، بموجب القانون الذي وضعه الباب العالي، كانت الدفعة الواحدة لا تساوي أكثر من ربع او عشر المطلوب لكل منهم، ولم تكن مثل هذه السندات لتعطى لأحدهم إلا اذا وقع على وصول يذكر فيه، أنه استوفى كامل المطلوبات له. وعندما بُدىء بالعمل بهذه التدابير الجائرة، ولم يجدوا أمامهم من يلجأون اليهم لأغاثتهم، كانت الارامل البائسات تملأن الهواء بصراخهن المحزن، لأنهن لمسن بوضوح، أن هذه المساعدات الجائرة، التي كانت ستُعطى لهن على دفعات متتالية، سيتم انفاقها أيضاً بصورة تدريجية لتأمين حاجياتهن اليومية، وأن ذلك سيتركهن وحيدات، لا اصدقاء لهن ولا مكاناً يلجأن اليه، سيتركن هكذا ليواجهن الواقع المرير، والموت المحتم. فتدفقت على الأثر جموع كبيرة على القنصليات الأوروبية،

تطلب المساعدة وتطالب بالتدخل لأنقاذهم من الضربة المميتة، ولكن دون جدوى، اذ لم يكن هناك إلا وعوداً كاذبة بالمساعدة، كان ما اصاب المسيحيين في لبنان مثل الذين اصابهم في دمشق، فيما يتعلق بالتعويض عليهم، كانوا ضحايا لا حول لهم ولا طول، عانوا من النهب والظلم والاهمال، التي سببها لهم الباب العالي، دونما اهتمام، ووافقت عليها أوروبا بعدم مبالاة وقسوة، أما الارامل البائسات من حاصبيا وراشيا على سفوح السلسلة الشرقية لجبال لبنان، فقد كنَّ يأملن أن ثمن الزيتون المباع لحسابهن، سيأتيهن بدخل ولو ضئيل، يمكن أن يساعدهن على مقاومة العوز لبضعة شهور، لكون المسؤولين الاتراك كانوا قد تعهدوا لهن بالمحافظة على المحصول من أن يستولي عليه الدروز. وأن يقوموا بجمعه في الوقت المناسب ولكن خاب ظنهن، فبدلاً من استلام ٨٠٠ قنطاراً وهو المحصول الحقيقي فقد قيل لهنَّ أنه ليس هناك سوى ٣٥٠ قنطاراً - وحتى هذه الكمية لم يستلمنها؟ وفوق هذا كله، أُمرن بالعودة الى بيوتهن. دون أن تؤخذ أية ترتيبات لتأمين منازل أو اغطية أو اعطائهن ما يساعد على بقائهن على قيد الحياة؛ (المنازل التي أُمرن بالعودة اليها كانت لا تزال اكواماً من الانقاض يغطيها الدخان الاسود وتظهر هنا وهناك فيها عظام الازواج القتلى والأخوة والأشقاء والأبناء وكلها متروكة في وهج الشمس المحرقة).

هذا كان العطف التركي، وكل هذه المآسي وما كان يتخذ من اجراءات معقدة، كانت تحصل مع وجود جيش فرنسي على الساحة اللبنانية، ووجود سفن حربية لبريطانيا وفرنسا قبالة الشاطىء في عرض البحر، ومعها كل التعليمات اللازمة، التي وجهت الى البعثة للقيام بالتحقيق بما كان من اهوال رافقت هذه الحرب الأهلية، لتحديد مسؤولية الأشخاص الذين كانت لهم علاقة بحصولها، مما يلزم المبعوثين بضرورة تتبعها واتخاذ الاجراءات القضائية بشأنها سيان ضد الموظفين الاتراك، أو زعماء الدروز وعامتهم، واكثر من ذلك، فقد كان هنالك اصرار على أن يكون هنالك من يمثلهم في المحاكمات، وأن لا يكون هنالك حكم أو تنفيذ لحكم إلا بمعرفتهم وموافقتهم - بيد أن المبعوث التركي اعتبر أن مثل هذه المطالب غير مقبولة، وابدى رأيه في أن البعثة، يجب أن تقتصر اعمالها على الانصراف الى اجراء التحقيقات العامة فقط، لأن اي تدخل في التحقيقات والاجراءات القضائية، يمكن أن يكون له تأثير مباشر على استقلالية المحكمة المعنية

بمحاكمة المتهمين، غير أن الحزم الذي ابداه المبعوث الانكليزي دون تردّد، تغلب على محاولة السلطات التركية اعطاء انفسهم حق مراقبة، يمكنها دون شك، تعطيل أية خطط يمكن أن يقروها لجعل نتائج العدالة كافية لتحقق انتصاراً سياسياً، في محاكمة زعماء الدروز ومعاقبتهم، وهي اجراءات كانت قد بدأت تظهر فعلاً مثل هذا الميل.

ومما قاله اللورد دوفراين: أنه اذا كان من حق البعثة المشاركة الكاملة في كل التحقيقات، ولم يعطَ لها مثل هذا الحق فوراً، فسيتقدم بنفسه، وبصورة رسمية ويقف في باب القاعة المعدة للمحاكمة، حتى يمكن وضع مسؤولية رفض السماح له بالدخول على عاتق المسؤولين من الاتراك كليا، وقد عاضده في ذلك زملاؤه بالاجماع في وجهة نظره هذه، بالنسبة لما لهم من حقوق. وما أن ابلغ فؤاد باشا، الذي كان في دمشق بهذا التصرف حتى بادر الى تحميل البريد، من تلك المدينة، رسالة مستعجلة وفيها ما يفيد أنه قبل بذلك. وفي اجتماع البعثة الخامس، في الثالث والعشرين من تشرين أول، اكتوبر، سنة ١٨٦٠ وضعت اللائحة الآتية كأساس لتصرفاتهم المستقبلية:-

«أن البعثة تعمل مجتمعة أكان في التحقيق بأسباب وبواعث الأحداث الأخيرة، أم كان فيما يتعلق بمخالفات وتورط الزعماء في الخروج على السلطة، أو بتواطؤ اولئك العملاء في السلطات التركية».

ومع أن حق التدخل الذي توصل إليه المبعوثون بنجاح، كان قد وضع بنيّة حسنة، وحال في بعض الحالات دون ارتكاب اخطاء، فإنه مع ذلك كان عاملاً ظاهراً في تأخير سير العدالة، ومساهم على الأخص، في تلك التعقيدات الغريبة التي تعرضت لها المحاكمات السورية بكافة انواعها، وما انتهت إليه فيما يتعلق بلبنان، وما كان من خفاياها واسرارها.

أن الفظاعات التي ارتكبها الدروز كانت معروفة، وكان مسببوها أيضاً معروفين، كما كانت الاثباتات التي تدينهم وافية، وبمتناول اليد، ولم يكن أمام العدالة إلا أن تضرب بسيفها، أو تنصب ميزانها - لتصل الى عقوبة مرضية وعادلة، ومع هذا فإن الأسابيع والشهور انقضت، وبدت البعثة العثمانية متغاضية عن المهمة التي كان يطلب منها تحقيقها، وهكذا اصبحت البعثة الاوروبية في النهاية فاقدة الصبر، متبرمة خجولة من العمل السلبي، وشاعرة بعظم المسؤولية التي تقع على عاتقها فيما لمسته من مناورات وتحايل ومحاباة

هي فوق كل حسبان، حتى لا نقول تأخيراً مقصوداً، لذا انبرت لأظهار رغبتها الشديدة بأتخاذ اجراءات سريعة وحاسمة وهنا لجأ فؤاد باشا، لأعطاء المبعوثين تأكيداته مكرراً برغبته في الاستمرار باجراءات المعاقبة دون ابطاء، غداً، وكانت كلمة «غداً» هذه تخرج من بين شفتيه قوية مما جعلهم يتوهمون، لقلة خبرتهم، بأنه عمل مؤكد، ووعد صادق، وكان هذا ما دفعهم الى تدارس ذلك في ساعات فراغهم، غير عارفين باسرار نهج التحايل والمداورة في الدبلوماسية التركية.

وقد كان مبعوث جلالة الملكة، أول من ادرك هذا التحايل، أن لم نقل الخداع، بهذه الملاحقات الوهمية، فوجه استجواباً ذكياً الى فؤاد باشا، قاصداً به افهامه أن للصبر حدوداً، وأن مطالب اوروبا لا يمكن تأجيلها أكثر من ذلك، فقال سعادته بتصميم واحراج: - «أن خمسة آلاف من أبناء لبنان، وضمن حدوده، قد قتلوا بحد السيف، ومائتي قرية قد احرقت، ولم ينزل العقاب بأحد من هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجرائم، ومع أن ذلك حدث وجيوش السلطان تحتل دون اعتراض كافة الجبل، وقد انقضت الشهور على وصول سعادتك، معطياً الوعد بأن يكون يوم العقاب وشيكاً» ثم اضاف، «أن السياسة والعدالة كلاهما تطلبان اتخاذ ما يضمن معاقبة المتهمين بمنتهى الوضوح، وفي هذه الحالة يجب اعطاء المثل على ذلك بأجراء فعلي وفوري، يقنع القبائل اللبنانية بأنه لا يمكن لحكومة السلطان أو الدول الأوروبية أن تسمح بتكرار مثل هذه المآسي والفواجع».

كان عند اللورد دوفراين اعتقاد أن تأخر فؤاد باشا في معاقبة الدروز يجب أن ينظر إليه بذلك الشعور في أن الظروف القهرية توجب استعمال القسوة مع شعب يوحي اليه ضميره، أن ما يقترفه من فضائح كان يرضي موظفي الباب العالي، وبهذا كان اللورد يضرب على الوتر الحساس، لأنه لو اعتبر أن الدروز، كانوا مجرد ادوات تنفيذ، وهذا لا مجال للشك فيه، فليس هنالك من هو ادرى بذلك من وزير خارجية السلطان، الذي لحسابه كانوا يعملون.

والبعثة، بعد أيام قليلة، وفي جلستها العاشرة تجاوبت مع ما ابداه المبعوث الانكليزي، فأقرت باتفاق كلي، أن معاقبة الدروز يجب أن تكون حازمة، وسريعة - لأن التدابير الروتينية ستكون في غير موضعها، وأنه من الضروري الضرب بسرعة وبقسوة،

دون اللجوء الى الاجراءات القضائية العادية، وأنه لا بد من اعطاء مثال قاطع وسريع على ذلك - والمبعوث العثماني سعياً منه في تسخين هذه المناسبة، متأثراً بما لمسه من حماس في تحقيق العدالة، طلب بالحاح متسائلاً عما اذا كان يقتضي جمع المتهمين الدروز بعد القاء القبض عليهم في بيروت قبل التنفيذ بهم، أو أنه سيكون هناك محكمة نقالة تستطيع لدى انتقالها من مكان الى آخر، وحتى الى الموقع الذي جرت فيه المجزرة، قطع الرؤوس، وهي في طريقها، هنا طلب المبعوث الانكليزيَ، بأسم الأنسانية، أن لا يتلقى المجرم عند سوقه للتنفيذ إلا ضربة واحدة شرط أن تكون مميتة، اذ لا يجوز أن يتعرض الأنسان للعذاب...!!

كان واضحاً، في الظاهر أن المبعوثين الاوروبيين قد حققوا الغاية التي جاؤوا من أجلها، وأنه في الأيام القليلة العادية سوف تتدحرج رؤوس من الدروز. والاتراك، بالرغم من تعاطفهم الديني، وما يخاطبهم من ريب في عدالة هذه التصرفات، فسيكونون مضطرين لأن يثأورا للدم المسيحي المسفوح في لبنان واذ ذاك تشعر المسيحية المهانة بأنها نالت حقها - ولكن زميلهم التركي كان يمسك بالخيط، ودائماً بالمرصاد، فمع اختتام الاجتماع اقترح على البعثة، أنه لما كانت محاكمة مشايخ الدروز في بيروت لا تزال جارية، فإنه سيكون من الانسب انتظار نتائجها قبل التعاطي مع عامة الدروز في الجبل (وكأنما كان بين الأمرين اي ترابط) فاستجيب الطلب، وقُبل الاقتراح بالتأخير؛ والمراوغة كانت بارعة، أنه ربح الوقت، والوقت عند التركي هو كل النقاط المطلوبة لتحقيق الانتصار في أية لعبة!

والآن وقد عرضت بوضوح أمام عيون المبعوثين والمواطنين المسيحيين براعة المداورات الخادعة، التي سبق بحثها في فصل سابق، من استدعاء القساوسة، وتعيين الوجهاء، وفرض سرية التصرفات، والقسم على ذلك، ثم كتابة الكشوفات، والنظر فيها، واعادتها للمراجعة، واعتقال الدروز والوعود المقطوعة، والتوقعات الكبيرة، وتطبيق العدالة في منتهى ابهتها، كل هذه كانت في النهاية موضع هزء وسخرية. فبصورة مفاجئة، وانطلاقاً من مصادر خفية، سرّت موجة من العطف على الدروز، فالجرائم التي ارتكبها هؤلاء السفاحون، وآلاف المسيحيين الذين قتلوا بلا ذنب، وبمنتهى برودة الدم، وبقسوة بربرية، وتلك النساء اللواتي قطعنَ إرباً إربا، والاطفال الذين مُزقوا على صدور

امهاتهم، ثم اندفاع الدروز من مسرح جرائمهم في لبنان، لتحريك مذبحة دمشق التي لم تكن قد حصلت لولا وقوف عصاباتهم المتجنية على بوابة تلك المدينة، يحملون اليطقانات والسيوف، وقدّ كشفوا عن سواعدهم، مزمجرين ليسمح لهم بالدخول الى القلعة ليطفئوا ظمأهم بالدم المسيحي، الذي لم يكونوا بعد قد عطشوا إليه اذ لم يكن قد جف ما سفح منه في المذابح التي تعرض لها المهجرون، الذين كانوا قد تجمعوا في خارج القلعة ـ أجل لولا ذلك لربما كانت الفاجعة التي حصلت في دمشق لم تحصل.

ومع كل ذلك سرّت موجة العطف على الدروز تحمل التسأولات الآتية:

١ ـ على ماذا يحاسب الدروز؟ هذا ما كان يطلب الجواب عليه. فكل ما فعلوه كان دفاعاً عن النفس.

٢ ـ الم يكن الموارنة في السنوات السابقة يتربصون بهم الدوائر كالنمور الجائعة استعداداً للانقضاض عليهم وامتصاص دمائهم؟!

٣ ـ الم يكن الموارنة قد بدأوا هذه الحرب؟!

٤ ـ الم يقم الموارنة أيضاً بأعمال بربرية؟

٥ ـ الم يقتلوا دون مبرر وبمنتهى برودة الدم، العشرات من الدروز اثناء سيرهم في خطوات الجيش الفرنسي وهو في طريقه الى الجبال؟!

٦ ـ الم يكن محتملا، لو أنهم كانوا قد ربحوا الحرب أن يقوموا بأرتكاب فظائع تساوي بشدتها أن لم نقل تزيد عن تلك التي ارتكبها الدروز فظاعة وقسوة.

٧ ـ اليس هناك مجرمون بين المسيحيين مثل مجرمي الدروز بل أكثر وحشية واجراماً؟!

٨ ـ وأخيراً، الم يطالبوا (أي المسيحيون)، بنهم وحشي، بقطع رؤوس اربعة آلاف وستمائة من الدروز؟!

٩ ـ الم يكن الدروز قد عوقبوا بقسوة اثناء تشردهم لعدة شهور طويلة، في الجبال والاودية كالحيوانات البرية بينما السيوف مسلطة على رؤوسهم، او تخبأوا في المغاور والكهوف يأكلون الخبز المصنوع من ثمر البلوط، الم يكن غذاؤهم طوال هذه المدة الأعشاب وجذور النبات؟.

وأمام هذا الشعور الجديد بالعطف على الدروز، كان الاتراك بغاية السرور، اذ من المفروض، بعد كل ذلك أن تكون المحكمة الميدانية المتنقلة لا من أجل الدروز فقط،

بل من أجل المسيحيين ايضاً، بل كان من المؤكد أن أفكاراً مثل هذه قد وجدت لها صدى، في قلوب أفراد البعثة نفسها. هكذا أُلغيت خطة الاجراءات لمحاكمة ميدانية ضد الدروز إذ كان هناك شعور بالخوف الشديد، بأن يحكم بالموت على ابرياء، واحتياطاً لمثل هذه الاحتمالات المخيفة فقد تقرر أن لا يحاكم أي درزي، إلا اذا ثبت أنه قتل دون مبرر رجلاً اعزل، أو امرأة أو ولداً، وأنه لا بد من شهادة شاهدين عدلين قبل الحكم بعقوبة قصوى.

في الوقت نفسه فإن محاكمة الموظفين الاتراك ومشايخ الدروز في بيروت كانت قد وصلت الى مرحلتها الأخيرة، واللورد دوفراين، في محادثاته مع فؤاد باشا قدم هذه التعليقات ذات الأهمية:

«بين الفئات الثلاث من المجرمين، الذين يقفون أمام المحكمة الأوروبية في قفص الأتهام، يبدو أجرام الموظفين الاتراك، ورؤسائهم، والذين بتهاونهم وتقاعسهم تفاقمت المآسي التي كان منعها مطلوباً منهم ومتوجباً عليهم، دائما موضع الاهتمام الشديد» هذا كان ما توصل إليه المبعوث البريطاني عند تبادل الرأي، على الاخص فيما يتعلق بسلوك الضباط الاتراك الذين تورطوا في الاحداث الاخيرة، وكان من الواضح، أن أي حكم يمكن أن ينال موافقته، يجب أن يضع هؤلاء في رأس قائمة المجرمين، لتنزل بهم اقصى العقوبات.

أما المبعوث النمساوي فكان يعارض أي حكم بالأعدام والمبعوثون الآخرون، كان المعروف عنهم أنهم يطالبون بتطبيق القانون بحذافيره. لذلك فبالحكم على مشايخ الدروز بالموت وعلى الضباط الاتراك بالسجن فقط فلن تكون النتيجة إلا اثارة الشقاق في اوساط البعثة، وايجاد الفرصة لكل اولئك المجرمين، الذين وقفوا في قفص المحاكمة، للاستنارة من هذه المفارقات الطارئة.

أن نتائج هذه المناورة كانت متوقعة. فمنذ اللحظة الأولى التي وضعت فيها المحاكمات في هذا الأطار بدأت البعثة تنشغل بخلافاتها حول الموضوع ككل، ولم تتمكن من الوصول الى أية نتيجة.

في هذا الوقت بالذات، توجه فؤاد باشا إلى المختارة، تاركاً المبعوثين يتخبطون في مستنقع خلافاتهم، محاولين اخراج انفسهم من المأزق الذي وقعوا فيه. أما الأجراءات

التي اتخذت في المختارة فلا ضرورة للعودة إليها ثانية، بل تجب الملاحظة، مع ذلك، أن ما سماه فؤاد باشا بالتدابير المستعجلة التي ساهم الى حد كبير بها كولونيل فرايزر، باندفاع وحيوية، فقد اسفرت عن الحكم على خمس وعشرين من الدروز بالاعدام، استناداً الى اثباتات غير قابلة للشك، في أن كلاً منهم، قد اقدم دون مبرر على ذبح أكثر من دزينة من المسيحيين، وقد طلب بمنتهى الشدّة والحزم تنفيذ الاعدام بهؤلاء الملطخين بدماء الابرياء، وعلى هذا فكان من رأي فؤاد باشا أن عملية الاعدام، على مراحل، في اوقات مختلفة، سيكون لها وقع اشدّ، من اجراء التنفيذ في يوم واحد وبصورة جماعية، مقترحاً أيضاً أن لا ينفذ حكم الاعدام بالمجرمين الموجودين في المختارة قبل معرفة ما سيكون مصير مشايخ الدروز في بيروت وقد اخذ بهذا الاقتراح المضلل، وتم كسب يوم آخر ووقت آخر!!

ولما عاد المبعوث العثماني الى بيروت وجد البعثة عاجزة عن تحقيق ولادة لخطتها بعد هذا المخاض العسير، اذ كان كل مبعوث يدرس الأجراءات منفرداً، ويضع عنها تقريره الخطي منفرداً، وكان المبعوثون ينصرفون بعد ذلك إلى قراءة هذه التقارير مجتمعين، الرأس الى جانب الرأس، ثم يستدعون اعضاء المحاكمة، القضاة، لمساعدتهم في استنتاجاتهم، ولكن دون فائدة ـ ولم يستطيعوا حتى في المحاورات والتشاور فيما بينهم، أن يميزوا رأس المهمة من ذنبها.

★ فالمبعوث النمساوي، كان يعتقد أن الضباط الاتراك قاموا بواجباتهم.

★ والمبعوث البروسي كان من رأيه اعدام الاتراك والدروز على السواء.

★ والمبعوث الروسي كانت لديه محكمته الخاصة، ويرفض الأجراءات التركية ويعتبرها مضحكة، لذلك قام بجمع معلوماته بوسائله الخاصة فيما يتعلق بجرائم المجرمين كلهم، وبنى على هذه المطالعات قراره الخاص.

★ أما المبعوث الفرنسي فكان يطالب برأسين اثنين من الدروز فقط، ولكنه كان يركز على ذلك الرأس الذي يمثل الأقطاعية الدرزية المثالية، «سعيد بك جنبلاط» فأنبرى المبعوث البريطاني للدفاع عنه بروح عالية تستحق هذا المستوى، غير معترض في الوقت نفسه على اعدام ما يصل عددهم الى ثلاثين أو اربعين من اكابر الدروز الاقل شأناً.

وهكذا كان حقل المحاورات التحليلية يضيق اكثر فأكثر، يوماً بعد يوم، وعوضاً

عن اجراء النقاش على أُسس قوية من العدالة، والعطف الانساني، فقد كان ينطلق من أُسس واهية بحكم الحسد، والتحيز المُغرض ـ ولما كان لا بد وأن تصل هذه المحاورات الى نهاية، فإن البعثة في جلستها الرابعة والعشرين في الثاني من آذار مارس سنة ١٨٦١، وبعد أن كانت قد وضعت المبعوث العثماني هدفاً لتهجماتها لمدة ست ساعات متواصلة ـ تهجمات تبادلها المبعوثون الأوروبيون زملاؤه الواحد تلو الواحد ضده، وقف، هذا الذي تمكن من التجلد والصبر ست ساعات، وقال، معلناً أسفة، الشديد، بأن اعادة النظر في الأجراءات، وهو ما قامت به البعثة، لم يؤدّ الى نتيجة، وأن الاختلاف في الرأي ظهر شديداً، لذلك فأمام هذه الحقائق ليس لديه إلا أن يُحيل كامل الامر على القسطنطينية (وفي هذا تأخير آخر وكسب آخر للوقت).

وفؤاد باشا كان قد اعتاد أن يجيب المتسائلين عن نتائج المحاكمات، وعن البدء بتنفيذ احكام الاعدام بقوله، ببراءة «عندما يتوصل هؤلاء السادة الى اتفاق بالرأي».

وبالفعل فقد ارسلت كل ملفات التحقيقات الى القسطنطينية وهناك تلاشت كفقاعات الصابون، وبأرادة الدول المسيحية انتهت عملية العقوبات على الجرائم الكبرى التي ارتكبها الدروز والمجرمون ـ بأصدار عفو عام عن المجرمين والقتله والسفاحين من كل فئة، ومنزلة أو درجة، ولم تمس شعرة واحدة من تلك الرؤوس، بما فيهم اولئك المحمديون البرابرة من صيدا الذين ثبت، أنهم دون أي استفزاز، بل اندفاعاً من نزعة همجية وتعصب لدينهم، ذبحوا دون رحمة الرجال، واغتصبوا نساء المهجرين المسيحيين اللواتي هربن من الجبل الى تلك المدينة طلباً للنجاة.

أيها القراء المسيحيون! اليس كل هذه أعمال وحشية! أليست هي فوق المعقول؟ أليست هي بمنتهى القسوة!؟ أليست هي مهينة لعقيدتنا؟ أليست هي عمل غير انساني؟.

ويا أيتها الشعوب المسيحية! هل ينقصكم أن تعرفوا بعد الذي تقدم القول فيه، أن أفضل فضائل المسيحية في هذه المناطق التي اشرقت عليها طلعة السيد المسيح، مخلص العالم، قد ضُحيت على مذبح الدبلوماسية؟ ألم يَضع كل جهد لمعاقبة الجرمين، رغم ما كان من ويلات ومآس؟ ألم يُعطل مفعولها، من نفس الدولة التي إنما جاءَت هذه الدول من أوروبا لتنظيمها وتوجيهها.

أيها الاباطرة المسيحيون والملوك! إلى متى ستستمرون بتجاهل القضية المقدسة، التي

تتظاهرون بالتمسك بها، وتجلبون بصورة فاضحة خطر الهلاك للمسيحية بأدعائكم حمايتهم ادعاءً كاذباً، بتخاصمكم المعيب وأطماعكم وأنانياتكم، إلى متى تلطخون بالعار وتلوثون صوالجكم بالخزي وتعرضون أسم المسيح للاهانة على رؤوس الاشهاد، باستسلامكم للأتراك الذين يقودونكم الى حيث يشاؤون كالعبيد .!!

الملحق - يكتبه المترجم - فندي الشمار

وكذلك كانت هنالك توقعات لمؤلف كتاب «الدروز والموارنة من ١٨٤٠ - ١٨٦٠». فما الذي توقعه المؤلف وهو سياسي كان يرأس بعثة انكليزية الى الشرق الادنى: -

١ - توقع تشرشل ان يثير العالم المسيحي ضد العثمانيين المسلمين بألصاقه فيهم تهمة التعصب الاعمى ضد المسيحية (هذا وجد له راندل مبررا في كتابه).

٢ - توقع ان يثير اهتمام دول الغرب المسيحية، للتمسك بهذه المنطقة التي تقع شرقي البحر الابيض المتوسط فيشركهم في مجابهة العثمانيين.

٣ - توقع ان يستميل احدى طوائف لبنان (الدروز) الى نظرة الانكليز.

٤ - توقع ان يكون للانكليز علاقة قوية مع سوريا، كما كانت معروفة في ذلك الوقت، لتحقيق مكاسب سياسية واقتصادية.

٥ - توقع ان لا يستطيع الموارنة والدروز التعايش في بلد واحد وتوقع المسيحيون، وعلى رأسهم البطريرك الماروني:

١ - ان يطردوا الدروز من جبل لبنان ويحلوا محلهم، ولما فشلوا توقعوا من دول اوروبا المسيحية ان تنزل العقاب بهم فتقطع اربعة آلاف وستماية رأس من رؤوسهم مع ان عدوهم لا يزيد عن خمسة آلاف.

٢ - ان يستولوا على املاك الاقطاعيين الدروز.

٣ - ان يتخلصوا من سيطرة الاقطاع الدرزي على المسيحيين المقيمين في قرى درزية.

٤ - ان يتمتعوا بحرية اكثر في ظل الحكم العثماني ويتحرروا من الخوف الذي يلازمهم ابدا.

٥ - ان تكون علاقتهم بالغرب وخصوصاً بفرنسا قوية ومتينة ودائمة.

٦ - ان يجعلوا من فرنسا حامية دائمة لهم وتوقعت البعثة الاوروبية التي كانت مؤلفة من خمس دول هي انكلتره، وفرنسا، وروسيا، وبروسيا، والنمسا:

١ - ان تجعل الدولة العثمانية خاضعة لمشيئتها سياسيا وادارياً.

٢ - ان تعمل ما يرضي المسيحيين من انزال اشد العقوبات بالدروز والمسلمين الذين اتهموهم بذبح المسيحين وتدمير ممتلكاتهم.

٣ - ان تثير الدول المسيحية في الغرب ضد المسلمين، وكأنما كانت تدعو الى حرب صليبية اخرى.

اجل هذه التوقعات التي ذكرت بعضا منها تكررت بعد ما يربو على ماية وخمس وعشرين سنة أو تزيد ولا تزال تتفاعل بين مد وجزر فلا لبنان يتعلم منها درساً ولا الدول الغربية تتعظ بما آلت اليه الأمور. ولبنان سيبقى على ما يظهر وما يتوقع له المؤلفان ارضاً يتصارع عليها الجبابرة على حساب راحة اهله وسعادتهم شاؤوا ذلك أم أبو.

أن القاريء اليوم في ١٩٨٤ أو فيما بعد سيجد امامه هذه التوقعات قائمة ويجد نفسه مشاركاً في هدم ذاته وتدمير نفسه ليستفيق في كل مرة نادماً ولو بعد حين، على ما اقدم عليه دون ترو.